قراءة في كتاب الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم:
بحث في وحدة المنهج وترابط الموضوعات للدكتور محمد غاليم

رشيد العمارتي
المغرب

«إن البحث في التآزر التطوري بين [القدرات المتخصِّصة] المعرفية هو الكفيل على الأرجح بتسليط الضوء على مظاهر التطور المعرفي البشري التي لا يمكن فهمها من خلال دراسة القدرات الفردية وحدها». باريت وكوسميدس وتوبي (2010)، ص. 542.

ونتناول فيما يلي:

- أولا، ما نقصده «بتوحيد» العلوم في إطار موقف طبيعي جديد؛ وبعضَ سمات الأنموذج المعرفي القائم على الترابط السببي المشار إليه بين ظواهر الكون الذي يتشكل فيه الإنسان، وبعضَ مكتسبات هذا الأنموذج المعرفية ومصادره وأهدافه الكبرى.
- ثانيا، بعض مظاهر اندماج اللسانيات المعرفية الحديثة في هذا الأنموذج بتقديم أمثلة من التفاعل عبر الوِجَاهات (interfaces) بين مكونات النسق اللغوي، ونخص «الدلالة اللغوية»، وباقي الأنساق الإدراكية والتصورية التي تُشَكِّل بنيةَ الذهن / الدماغ الشاملة وتختص العلوم المختلفة المذكورة آنفا بدراستها. وهي مظاهر اندماجية تعكس فهما أعمق لمكونات اللغات الطبيعية وخصائصها التصورية وموارِدها التحليلية (processing ressources) وأصولها العصبية، واهتماما متزايدا، في حقل النظرية اللسانية المعرفية، ببلورة تصورات مقيَّدة وِجَاهِيًّا لتصميم اللغة واكتسابها واستعمالها والبحث في الخصائص التي تأتلف، أو تختلف، فيها هذه الملكة وباقي الملكات الأخرى.

وتعود الدعوة إلى وحدة العلم (unity of science) في القرن العشرين، إلى أوطو نورات Otto Neurath (1882-1945) مؤسس حلقة فيينا باعتبارها مؤسَّسة معبرة عن «الفلسفة الجديدة»: «الوضعية المنطقية»، ورمزا لهذه الفلسفة. وقد كان نورات، خلافا لكثير مما يشاع عنه، مدافعا عن وحدة العلوم وعن تنوعها في نفس الوقت؛ أي كان صاحب موقف طبيعي، ولكنه رافض في الآن نفسه لاختزال مختلف العلوم في علم واحد كالفيزياء.

1.1. الصيغة الاختزالية

تقوم هذه الصيغة على غزو فرع معرفي معين وإدماجه كليا في الفرع الغازي. وتندرج في ما يسميه ماكي وآخرون (2018) «أمبريالية علمية» تتعلق «بنوع من العلاقة المتعددة التخصصات يحتل فيها تخصص علمي مجال تخصص علمي آخر أو يقتحمه».

2.1. الصيغة الترابطية

وهي صيغة أساسها الأوّلي الكشف عن مبدأ مشترك بين مجالين أو أكثر من المجالات العلمية التي كانت تعتبر من قبل مجالات مختلفة ومتباعدة. ومن الأمثلة التي توضح ذلك، توحيد الفيزياء والكيمياء والأحياء في القرن التاسع عشر؛ وهي مجالات أصبحت تبدو بعد التوحيد بمثابة مناطق مختلفة لنفس الإقليم.

وخلافا للصيغة الأولى الاختزالية، تعبر الصيغة الثانية عن توحيد ترابطي تفاعلي يعكس المبادئ والخصائص الطبيعية والمطردة المشتركة. فتتخذ وحدة العلم بذلك شكل شبكة تعددية منظمة، أو مُتَّصِلٍ (continuum) بين شتى أنواع التخصصات العلمية الرئيسة والفرعية. إنه توحيد

أساسه تفاعل مكونات المعرفة العلمية في إطار نظرية شاملة للمعرفة مبنية على اندماج نتائج مختلف العلوم وترابطها السببي واتساقها؛ بعيدا عن اختزال الظواهر في هذا البعد أو ذاك، سواء أكان بعدا اجتماعيا – ثقافيا أم أحيائيا أم فيزيائيا.

بهذا يسعى الموقف الطبيعي الجديد الذي نقصده هنا، وانسجاما مع ما رأيناه في الباب الأول عن وحدة المنهج العلمي، إلى وضع العلوم الاجتماعية والإنسانية، من حيث موضوعاتها، على مسافة من علوم الطبيعة مشابهة لتلك التي يمكن أن تفصل بين أي علمين طبيعيين. وهذا يعني أن علاقة علم النفس واللسانيات وعلم الاجتماع والأناسة، الخ. بالأحياء والفيزياء، الخ. لا تختلف من حيث المبدأ عن علاقة علم الفلك، مثلا، بالرياضيات، أو علوم الأرض بالفيزياء، أو الأحياء بالكيمياء. إنه مشروع يسعى إلى ربط العلوم الاجتماعية والإنسانية بعلوم الطبيعة عبر شبكة من الروابط التصورية أو التجريبية، تزداد كثافتها باستمرار مع تقدم المعرفة العلمية، وتسمح «بتجاوز المذهب الطبيعي ذي البعد الأحادي والخصائص الميكانيكية الطاغية، الموروث عن القرن السابع عشر الأوروبي»، كما يقول غار وهودسن (2017).

2. المعرفي رباطا بين المادي والذهني

أصبح الربط الذي أشرنا إليه، بين العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلوم الطبيعة، أمرا ممكنا بفضل المكتسبات الحديثة الهائلة في العلوم المعرفية التي أصبحت تؤهلها للانطباق في المجال الإنساني – الاجتماعي؛ إلى جانب تطورات الموقف الطبيعي التي ارتبطت بذلك في الفلسفة (وفلسفة الذهن) والتي تنبأ بها فلاسفة على رأسهم كواين، الذي كتب في ستينيات القرن الماضي أن «المعرفة والذهن والمعنى» كيانات تشكل «جزءا من نفس العالم الذي تتعامل معه، وأنه يجب أن تتم دراستها بنفس الروح التجريبية التي تبعث الحياة في العلم الطبيعي». وهي تطورات أدت إلى تكوُّن أنموذج معرفي (cognitive paradigm) يشكل إطارا للفكر والاستكشاف أو مشروعا علميا تعاونيا موسَّعا يجمع بين مباحث منفصلة أو مجزَّأة، في إطار واحد مندمج منطقيا للبحث في العلوم الطبيعية والنفسية والاجتماعية والسلوكية. وذلك على أساس أن المعرفي رِبَاطٌ بين المادي والذهني. فصفة المعرفي تشمل الذهنيَّ وعِمادَه الماديَّ وما بينهما؛ أي ليس فقط مجمل وظائف المعرفة البشرية ومحتوياتها وعمليات معالجتها وتحليلها وتخزينها واسترجاعها، الخ..، ولكن أيضا، الأساسَ العضوي، ومن ثمة الطبيعي الفيزيائي، للآليات والبرامج الأحيائية التي تُمَكّن من تنفيذ تلك الوظائف والعمليات وتَحَقُّقِها.

إن العلم الذي دافع عنه بقوة بالغة الكثير من علماء الاجتماع والإنسانيات في القرن العشرين علم يفصل الفيزيائي / المادي عن الذهني، والأحيائي عن الثقافي، والطبيعي عن الإنساني / الاجتماعي. ويرسم خارطة للعلوم الاجتماعية والإنسانية تشكل «خليطا من المذاهب المتناقضة، بدون وحدة نظرية أو اتجاه واضح نحو التقدم؛ ومكوِّناتُها الرئيسة غير متماسكة بما يكفي»، بسبب إطار عملها التقليدي الذي سمي منذ 1992 بنموذج العلم الاجتماعي المعيار (Standard Social Science Model). وهو نموذج مبني على افتراضات عن طبيعة الهندسة النفسية والتطورية البشرية، من أبرزها أن الهندسة النفسية البشرية تتكون بالدرجة الأولى من آليات للتعلم والتفكير عامة الغرض (general purpose)، ومستقلة عن المحتوى (content-independent)، ومتساوية الإمكانات. أي أن الذهن صفحة بيضاء، بدون هندسات متخصصة صمَّمها الانتقاء الطبيعي لتستجيب بكيفيات مختلفة للمُدخَلات وفقا لأهميتها التطورية. ويقدم هذا التصور النفسي المفترض تبريرا لدعوى تأسيسية جوهرية، مفادها أنه مثلما لا تلعب قطعة الورق البيضاء أي دور سببي في تحديد المحتوى المسجَّل عليها، فإن تصور الذهن باعتباره صفحة بيضاء يُسوِّغ الاعتقاد القاضي بأن التنظيم المتطور للذهن لا يلعب سوى دور سببي ضعيف في توليد محتوى الحياة الذهنية والاجتماعية البشرية. إن الذهن بقدرته التعلُّمية يستوعب محتواه وتنظيمه بالكامل تقريبا من مصادر خارجية. وهي عملية اعتُبِرت مماثلة لعملية التسجيل بالكاميرا، إذ ينشأ محتوى التسجيل في العالم الخارجي، بينما لا تضيف آلية التسجيل أي محتوى خاص بها إلى المزيج الناتج. وقد سبق لأرسطو، كما هو معروف، أن عبَّر عن هذا التصور بقوله: «ليس في الذهن شيء لم يكن أوَّلا في الحواس».

ويبدو أن أبرز المصادر العلمية لهذه الأفكار وأهمَّها ثلاثةٌ، هي فلسفة الذهن الحديثة القائمة على نتائج العلوم المعرفية، وخاصة منها العلوم العصبية والوراثية، وعلم النفس التطوري.

وإلى جانب تفنيد فرضية الصفحة البيضاء كما أشرنا آنفا، نذكر من بين أبرز مكتسبات المصدر العلمي الأول (فلسفة الذهن الحديثة القائمة على نتائج العلوم المعرفية) ما يلي:

- يمكن أن يُبْنَى العالَمَ الذهني، المكوَّن من المعاني والأفكار والمقاصد والبواعث، الخ...، في العالَمَ الفيزيائي، من خلال تصورات تعبر عن عمليات فيزيائية على قدر كاف من الوضوح. ومن هذه التصورات على سبيل التمثيل لا الحصر: تحليل المعلومات (information processing) والحَوْسبة (computation)، والتجسُّد (embodiment) الخ...

- يمكن لكمية لا محدودة من السلوكات أن تولد بواسطة برامج تأليفية محدودة في الذهن. فكل القدرات، ومنها اللغة، والمعرفة الاجتماعية – الثقافية، والموسيقى، والمعرفة العددية، ونظرية الذهن، الخ...، تقوم على أوَّليات ومبادئ تأليف، أي على نسق تأليفي محدود القواعد يوَلّد ما لا نهاية له من البنيات السليمة في القدرة المعنية.

- الذهن نسق مركب مكوَّن من أجزاء كثيرة متفاعلة. إنه ذو بنية قالبية (modular) قائمة على عدد من الأجزاء تتضافر لتوليد سلاسل الأفكار أو الأعمال المنظَّمة. ويملك أنساقا متمايزة لتحليل المعلومات، تتعلق بضمان حسن سير العمليات، ومهارات التعلم، والتحكم في الجسد، وتذكر الوقائع، والحفاظ المؤقت على المعلومات، وتخزين القواعد وتفعيلها. وتَعْبُرُ هذه الأنساقَ التحليليةَ ملكاتٌ ذهنيةٌ تختص بأنماط مختلفة من المضامين، كاللغة والعدد والفضاء والموضوعات الحية.

ويتعلق المصدر العلمي الثاني بعلم الأعصاب، وخاصة علم الأعصاب المعرفي، ثم الوراثيات السلوكية (behavioral genetics). أما علم الأعصاب المعرفي فهو دراسة الكيفية التي تتحقق بها المعرفة والعاطفة في الدماغ؛ من كيفية عمل الخلايا العصبية على المستوى المجهري إلى الكيفية التي يفكر بها الناس ويتحدثون ويتصورون ويتذكرون، الخ. فنشاط تحليل المعلومات في الدماغ هو الذي «يُسَبِّب» الذهن، أو هو الذهن؛ وتدل الحجج في كلتا الحالتين على أن كل مظهر من مظاهر حياتنا الذهنية يقوم كليا على النشاط الفيزيولوجي في أنسجة الدماغ. وأما الوراثيات السلوكية فهي دراسة الكيفية التي تؤثر بها المورِّثات في السلوك البشري النفسي والاجتماعي.

ويهتم العنصر الثالث، وهو علم النفس التطوري (evolutionary psychology)، بدراسة التاريخ الأحيائي – التكويني للذهن ووظائفه التكَيُّفيَّة. وذلك لفهم تصميم الذهن وغايته، ليس بالمعنى الأسطوري أو الغائي (teleological) التقليدي، ولكن بمعنى صورة الهندسة التي تعم العالم الطبيعي. وهي هندسة نرى علاماتها في كل مكان، في العين التي تبدو مصمَّمة لتشكيل الصور، والقلب الذي يبدو مصمَّما لضخ الدم، والأجنحة التي تبدو مصمَّمة للطيران، الخ... .

بالنظر إلى مثل هذه المعطيات، يكون من الأهداف العلمية البارزة للمشروع أو الأنموذج المعرفي، على المدى البعيد، الربط بين مختلف عناصر الطبيعة البشرية الكلية (universal). والمقصود بهذا الربط، البناء التدريجي المتأني لمجموع الملكات المذكورة أو الأنساق التكَيُّفيَّة الدقيقة أو القوالب المختصة المعرفية والإدراكية التي ولَّدها التطور في الجنس البشري، كالأنساق الوراثية، والتشريحية، والعصبية، والمعرفية (الاجتماعية واللغوية، الخ.) وأنساق معالجة المعلومات، وغيرها، والتي تشكل مجتمعة الطبيعة البشرية الكلية، أو الرابط الجوهري بين الذهن والثقافة والعالم.

ومن الطبيعي أن يرتبط بهذا الهدف هدف علمي آخر يسعى إليه الأنموذج المعرفي، على المدى المتوسط والبعيد، هو عملية إعادة بناء شاملة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، على أساس نموذج علمي دقيق للطبيعة البشرية قائم على العلوم الطبيعية، أو ما سماه توبي وكوسميدس (1992 و2016) بالنموذج السببي المندمج (Integrated Causal Model). أي إعادة تشكيلٍ نوعيةٍ جديدةٍ لخارطة تصنيف العلوم الموروثة عن القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. والهدف المنتظر أن تصبح التخصيصاتُ السليمة المفصلة لهندسة القوالب المعرفية التي تشكِّل الطبيعة البشرية، المكوناتِ المركزيةَ النظريةَ لمجموعة جديدة من العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاد بناؤها.

فسمح ذلك بظهور نموذج علمي جديد قائم على تفاعل مكونات المعرفة العلمية في إطار نظرية صورية شاملة للمعرفة مبنية على اندماج نتائج مختلف العلوم وترابطها السببي واتساقها؛ وبعيدا عن اختزال الظواهر في هذا البعد أو ذاك، سواء أكان بعدا اجتماعيا – ثقافيا أم أحيائيا أم فيزيائيا.

ونجد اليوم نظريات مختلفة تندرج في هذا المشروع العلمي المعرفي، منها نظرية الدلالة التصورية (أو الهندسة المتوازية) التي نتبنى مبادئها الجوهرية والتي طورها راي جاكندوف (تدريجيا منذ سبعينيات القرن الماضي (1978 خاصة))؛ ونظرية العمل التفاعلي عند فاريلا وتومبسون وروش منذ تسعينيات القرن الماضي (1991 خاصة)؛ وعلم النفس التطوري عند توبي وكوسميدس منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي وبداية تسعيناته، كما أشرنا آنفا. ولا تهمنا هنا الاختلافات الفعلية، العميقة أحيانا، الموجودة بين نظريات المشروع المعرفي التي ذكرناها دون نظريات أخرى للاختصار، والتي تمكن تسميتها نظريات «واصلة» بين القدرات المعرفية ومجالات دراستها (في مقابل نظريات «فاصلة» تنتمي إلى التصور المعيار وتركز أساسا على خصوصيات تلك القدرات والمجالات والفصل بينها)، بقدر ما يهمنا التشديد على الائتلاف القائم بين هذه النظريات، والمتمثل في افتراض الترابط السببي العميق بين مختلف الظواهر الطبيعية والمعرفية، من المادية الفيزيائية إلى الذهنية التصورية.

واستدلت نظريات لسانية معرفية (ونظريات في مجالات أخرى غير لسانية كعلم النفس المعرفي مثلا) استدلالا واضحا، منذ السبعينيات وبدايات الثمانينيات من القرن الماضي، على الأقل، على التفاعل عبر الوِجَاهات بين النسق اللغوي وباقي الأنساق المعرفية التي تُشَكِّل بنيةَ الذهن / الدماغ الشاملة، وتختص علوم عديدة مختلفة، طبيعية واجتماعية وإنسانية، كالتي ذكرناها آنفا، بدراستها. وهي مظاهر اندماجية تعكس فهما أعمق لمكونات اللغات الطبيعية وخصائصها التصورية ومواردها التحليلية وأصولها العصبية، واهتماما متزايدا، في حقل النظرية اللسانية المعرفية ببلورة تصورات مقيَّدة وجاهيا لتصميم اللغة واكتسابها واستعمالها والبحث في الخصائص التي تأتلف، أو تختلف، فيها هذه الملكة وباقي الملكات الأخرى.

المبادئ العامة المشتركة، على رأسها ربط اللغة بمجمل العمليات والقدرات المعرفية كما أشرنا، فإن هناك اختلافات عديدة وعميقة أحيانا، بين هذه النظريات. ونذكر من باب التمثيل فحسب، أن من الاختلافات الرئيسة بين إطارين نظريين معرفيين هما: نظرية الدلالة التصورية عند جاكندوف، من جهة، ونظريات لسانية معرفية كنظرية ليكوف (1987)، والنحو المعرفي عند لنكيكر (1987)، ونظرية تالمي (2000)، من جهة ثانية، أن هذه النظريات الأخيرة، خلافا لنظرية جاكندوف، ليست صارمة بما يكفي في ما يخص الصورنة (وكثير من ممارسيها، بالفعل، مضادون للصورنة)؛ ولا تعمل بالقدر المطلوب على دمج نتائجها في بقية المجال العام لعلم النفس المعرفي. كما أنها تشكك في الحاجة إلى مفهوم مستقل للتركيب في القدرة اللغوية.

لقد أصبح من الطبيعي في السياق المعرفي المذكور، أن يتزايد الاهتمام في حقل النظرية اللسانية، كما أسلفنا، ببلورة تصورات مقيَّدة وجاهيا للهندسة اللغوية، ليصبح مفهوم الوجاهات مفهوما رئيسا في قضايا تصميم ملكة اللغة واكتسابها واستعمالها وعلاقاتها بصور المعارف في الملكات الأخرى، والبحث في تمييز الخصائص التي تتفرد بها، من الخصائص التي تشترك فيها مع هذه الملكات. ونقصد هنا بالتقييد الوِجاهي التقييدَ الفِعْلي وليس التأملي، ولا يقوم الاستدلال على التقييد الفعلي، كما هو معلوم، إلا ببناء نظريات واضحة لمختلف القدرات المعرفية وأوَّلياتها ومبادئ تأليفها، التي تربطها علاقات وجاهية مقيِّدة باللغة، وليس بافتراضات تأملية غامضة حول تلك القدرات.

ويُستَخلَص مما أجملنا ذكره عن تصور الذهن في الأنموذج المعرفي أن تلمس الإجابة عن مثل هذه الأسئلة يتطلب تحقق شرطين على الأقل:

- تعيين القدرات المعرفية المعنية وتبَيُّن مكوناتها ومبادئ تأليفها، سواء أكانت قدرات إدراكية أم تصورية؛

- بناء أطر نحوية كافية تمكن من الرصد الفعلي للربط والتفاعل الوجاهيين بين اللغة وباقي القدرات الأخرى بكيفية طبيعية وسلسة. ذلك أن الرصد الفعلي لهذا الربط والتفاعل – وليس مجرد افتراض وجودهما بشكل عام وغامض – هو الذي يسمح فعلا بتبَيُّن الكيفية التي تقيِّد بها القدراتُ الأخرى القدرةَ اللغويةَ عبر الوجاهات الرابطة بينهما، تقييدا فعليا كما أسلفنا.

ويمكننا أن نمثل، في ما يلي، للنتائج الملموسة التي أفرزها الربط والتفاعل الوِجاهيّان بين بنية الملكة اللغوية وبنيات باقي الملكات المعرفية الأخرى، بذكر بعض المكتسبات والآفاق الرحبة التي تفتحها نظرية الدلالة التصورية (أو هندسة التوازي) أمام النظرية الدلالية الساعية إلى وصف المعنى وتفسيره. وذلك في ما يخص التقدم غير المسبوق في فهم طبيعة ما نسميه «دلالة لغوية»، بفضل تبين علاقة هذه الأخيرة ببناء أنساق التصورات التي يحيا بها الإنسان. وهي أنساق تمثل العُدَّة التصورية الرئيسة المشَكِّلة لمختلف القدرات المعرفية التي تُستمَد منها المعاني التي تدل عليها الكلمات والتراكيب اللغوية. وبفضل ذلك أصبح بالإمكان الشروع في طرح أسئلة تفسيرية حقا من قبيل: من أين تأتي معاني الألفاظ التي لا تقوم اللغة بدونها؟ لماذا هذه المعاني حصرا وليس معاني أخرى؟ الخ... .

وقد ربط مار بوضوح بين نظريته والنظرية اللغوية. فالهدف الأول في النظريتين هو ما أسماه «نظرية حاسوبية» وما يسميه اللغويون «نظرية القدرة»: أي رصد البنية الصورية للتمثيلات الذهنية التي تستلزمها المهمة المعرفية، ورصد الحوسبات التي تربط مستويات التمثيل ببعضها. وبهذا توحي نظرية مار باتجاه نحو إجابة سؤال مكنامارا. فمثلما هناك ترابطات حاسوبية بين مستويات التمثيل في الإدراك البصري، ينبغي البحث عن ترابطات حاسوبية بين التمثيلات البصرية والتمثيلات اللغوية. فما هي المستويات الواردة في عملية الترابط هذه؟

يبدو من البديهي أن الترابط قائم بين البنية التصورية – المعنى اللغوي – والنموذج الثلاثي الأبعاد أو الفهم البصري. فحين نتحدث، مثلا، عن قط نراه، فإننا نتحدث عنه من حيث هو موضوع واحد موحَّد، في استقلال عن وجهة نظرنا، وبغض النظر، مثلا، عن الشكل الخاص الذي يمكن أن يتخذه ذيله في تلك اللحظة. ولا نتحدث عنه من حيث هو مجموعة متصلة من الأسطح المرئية من زاوية معينة (أي مستوى رسم البُعد 2 ½)، وبدرجة أقل، من حيث هو حواف ونقط وخطوط (أي مستوى الرسم الأوَّلي). ومن ثمة، فمستوى النموذج الثلاثي الأبعاد هو المرشح المناسب للارتباط باللغة. وفي ما يخص الجانب اللغوي، فإن الإحالة تكون على قط، وبنيته التصورية هي التي تُرَمِّز الإحالة، وليس التركيبية أو الصواتية.

بهذا يُعتبَر المستويان التمثيليان، البنية التصورية والنموذج الثلاثي الأبعاد، مستويين متوازيين متفاعلين، عبر مستوى وِجاهي، وشريكين في بناء فهمنا للعالَم. وتُعتبَر بعض العناصر، كمفهوم الموضوع الفيزيائي، ومفهوم الحركة الفيزيائية، ومفهوم أجزاء الموضوع الفيزيائية، عناصر وِجاهية مشترَكة بين التمثيلين. في حين تُعتبَر أنواع أخرى من العناصر أو المعلومات خاصة بهذا التمثيل أو ذاك؛ كتفاصيل الشكل المظهري لعنقَيْ البطة والإوزة، وتفاصيل اللون، في النموذج الثلاثي الأبعاد، وكالمِلْكية، والقيمة، والعدل، والغرض، والعم، الخ. في البنية التصورية. وتمثل العناصر المشتركة أساس البنية التصورية في المجال الفضائي.

إن ما نستخلصه عن «معنى» التعابير الإدراكية البصرية، إذن، أنه يتجاوز السمات والدالات التي تشكل ما نعتبره عادة «دلالة لغوية»، ليشمل المعلومات اللازمة عن تفاصيل التمثيل الفضائي المستمدة من الوجاه الرابط بين البنية التصورية والبنية الفضائية.

(2) [وضع ذهب ([موضوع زيد]، [مسار إلى ([مكان المكتب])])]

[أثَّر (زيد)]

أي أن البنية التصورية، في هذا السياق، تتعلق أساسا بترميز بنيات حملية ملائمة تقوم على دالات الصف المحوري ودالات صف الأدوار الكبرى، مثل (2)، يمكن ربطها بعد ذلك ببنيات فضائية – بصرية أكثر تفصيلا.

لكن لهذه الأمثلة أيضا أثرا في نسق اللغة. فقد دأبت كثير من المعالجات الصورية للدلالة على تقليص أنطولوجيا النسق إلى أقصى حد، وحصر الكيانات الأوّلية، إن أمكن، في الأفراد وقيم الصدق. وقد اعتُبِر ديفيدسن (1967) جريئا حين اقترح أن تتضمن الأنطولوجيا أيضا الأحداث أو الأعمال؛ وها قد أضحى «متغير الحدث» أمرا مألوفا في الدلالة الصورية. إن ما تبينه اللائحة المذكورة، هو أن اللغة تتصرف كما لو كانت هناك أيضا أنماط (مقُولات)، ومحلات، ومسارات، وكيفيات، ومسافات، ومقادير، وأصوات.

فهل هناك بالفعل محلات في العالم، ومسافات، وكيفيات، الخ..؟

إن إجابة هذا السؤال تكمن، بناء على ما سبق، في البنية الفضائية. وتجدر الإشارة إلى أن المبدأ العام الذي ينبني عليه افتراض هذه البنية من حيث هي تمثيل ذهني غني، يجد مصداقا له في تراث علماء النفس الجشطلتيين؛ ومن خلاصاته أن أذهاننا هي التي تبني عالم تجربتنا. ولا يهم، في الدلالة اللغوية أيضا، أن تكون كل هذه الكيانات موجودة فعلا في العالم. وما يهم هو أننا نضعها في تجربتنا وفهمنا لهذا العالم؛ ومتى ما استقرت هناك، أمكننا أن نحيل عليها.

إن ألفاظ اللغة بما تعبر عنه من المعاني، لا تَدُلُّ أو تستكمل دلالتَها في واقع الاستعمال اللغوي إلا باعتبارها «مداخل» إلى مجموعة من العمليات الاستنتاجية التي تتم في الأنساق التصورية داخل أذهان الشركاء اللغويين؛ أو باعتبارها «مُحَفِّزات» تُنَشِّط تلك العمليات. فالمعاني التي تنقلها اللغة لا تكتسب دلالتها إلا بدمجها، عبر أنساق وجاهية، في مختلف الأنساق التصورية المشكلة لبنية الإنسان التصورية. تماما مثلما لا تعبر البنيات اللغوية عن «دلالاتها الإدراكية» إلا بفضل دمجها، عبر الوجاهات، في الأنساق المختصة بذلك. وهذه الأنساق الذهنية، التصورية والإدراكية، هي التي تشكل سياق استعمال الكلمات.

يبقينا المثال الأول في سياق «أفعال الإدراك» (أو «أفعال الحواس»). ويرتبط بدلالة فعل الرؤية ويندرج في توضيح دور الوِجاه المتصل بنظرية الذهن في تخصيص سمة دلالية لازمة لفهم نمط من الأوضاع، هي سمة دالة المعاناة (experience). والمقصود نمط الأوضاع التي تستلزم أخذ الحالة الذهنية لموضوع من موضوعاتها بعين الاعتبار هو موضوع المعاني (experiencer)، في بناء دلالة الوضع. ويعرف هذا النمط من الأوضاع في الأدبيات الدلالية «بالمحمولات النفسية»، نحو: ظن واعتقد وقصد، وأفعال الحواس التي تفيد حالة حصول الإدراك والوعي به، مثل رأى.

لننظر في المعطيات التالية:

(3) ما فعلته هو أني {نظرت إلى / *رأيت} الرجل المخطئ

(4) بينما كنت {أنظر إلى / *أرى} الرجل المخطئ دخل زيد

يبدو، باستثناء سياقات ذريعية خاصة، أن فاعل نظر إلى، في (3)، عامل (actor) وليس كذلك فاعل رأى. وأن نظر إلى، في (4)، تقبل جهة التدرج، وهي خاصية تغلب في الأعمال، بينما لا تقبل ذلك رأى. وهذا يشير إلى أننا أمام تقابل بين فعل حالة هو رأى، وفعل عمل هو نظر إلى.

وهذا التقابل شائع في اللغات، وتعززه روائز عديدة، يُستنتَج منها أن الوضعين: رأى ونظر، يقومان على اتصال بصري بين مدرِك ومدرَك، فتبقى الأدوار في الصف المحوري هي نفسها في بنيتَيْ الفعلين. ونفترض أن هذا الصف يتضمن دالة ترصد ما هو مشترك بينهما، هي: س أدرك بصريا ص، (أي: «س أدرك ص بحاسة البصر»).

لكن الاختلافات الواردة تتعلق بصف الأدوار الكبرى الذي نفترض فيه دالة جديدة، هي: س عَانَى ص، حيث الموضوع الأول مُعَان والموضوع الثاني منبه. وبذلك، نفترض، في مستوى هذا الصف، أن نظر إلى تقوم على الدالة: أثَّر، في حين تقوم رأى على الدالة: عانى.

ويظهر التمثيل لدالات الصف المحوري وصف الأدوار الكبرى كما في (5):

(5) أ. س نظر إلى ص

[س أدرك بصري ص
  س أثر]

ب. س رأى ص

[س أدرك بصري ص
  س عانى ص]

ومن الفروق التي تنتج عن تمييز دالة الرؤية: عانى، من دالة النظر: أثَّر، أن الأولى تجعل من الجملة جملة ساكنة، تصف، كما في (4)، معاناة وليس نشاطا. في حين تجعل الثانية من الجملة جملة نشاط. وفي هذا السياق يبدو أن نظر تشبه فعلا مثل أشار إلى، والاختلاف بين فعل النظر وفعل الإشارة إنما يكمن في أن الأول توجيه للعين في حين أن الثاني توجيه للأصبع. أما رأى فتفترض وعيا بالمرئي (أو وصولا إليه). ومثل هذه الفروق هي التي تجعل من رأى فعلا للتمثيل الذهني مثل اعتقد، وقصد، وفهم، الخ.

إن خصائص النشاط والحالة التي تميز نظر إلى من رأى، تصدق كذلك في أنصت وسمع، مع تغيير حاسة الإدراك إلى السمع. أما ذاق وشم ولمس، فلكل فعل منها الاستعمالان معا: استعمال النشاط وتدل عليه، فيصف الأدوار الكبرى، أثر؛ والاستعمال السكوني وتدل عليه عانى.

3.2.3. دلالة الروابط السببية

يمثل جزء مهم من روابط الخطاب طبقة من الوحدات اللغوية التي تبرز فيها بشكل جلي علاقة اللغة بقدرات نظرية الذهن؛ وذلك على غرار أفعال الحالات الذهنية والإثباتيات والمُوَجِّهات وغيرها.

ويعتبر المجال المعرفي (epistemic domain)، كما تسميه سويتسر (1990) Sweetser-، الذي يستلزم الربط بين مقدمة (premise) ونتيجة (conclusion)، المجالَ الأول من مجالات الاستعمال اللغوي الذي تظهر فيه هذه العلاقة، لما يتطلبه من قدرات نظرية الذهن بشكل مباشر. كما أن المعاني المخصوصة لبعض الروابط التي تقوم على تصورات تتعلق بالبناء الذهني، تتطلب هذه القدرات أيضا.

تفترض سويتسر (1990) أن الوظائف المختلفة التي تقوم عليها الوحدات المعجمية تترابط عن طريق علاقات معرفية عامة بين مجالات تصورية متعددة. وهي مجالات تهم العالم الاجتماعي – الفيزيائي، والحالات الذهنية، والتواصل. وتسمي سويتسر هذه المجالات تباعا: مجال المحتوى، (content domain)، والمجال المعرفي ومجال الأفعال الكلامية (speech act domain).

ونمثل لهذه المجالات الثلاثة بالجمل التالية التي توافق فيها أنماطُ العلاقات الثلاث المعبَّر عنها بالرابط لِأَنَّ، مجالا معينا من المجالات المذكورة:

(5) سقط خالد لأن هندا دفعته

(6) خالد مريض، لأنه لم يأت إلى العمل اليوم

(7) هل أنت جاهز؟ لأننا تأخرنا

يوافق المثال (5) المجال الاجتماعي – الفيزيائي أو مجال المحتوى الذي يؤدي فيه دفع شخص معين إلى سقوط الشخص المعني. ويندرج المثال (6) في المجال المعرفي: فواقعة عدم رؤية خالد في مكان عمله تُعتَبَر مقدمة تؤدي بالمتكلم إلى استنتاج يوَلّد اعتقادا.

والفرق الرئيس بين استعمال الروابط في مجال الأفعال الكلامية واستعمالها في المجال المعرفي يكمن في المحتوى الدلالي لتمثيل التمثيل. فينما نجد، في الاستعمال المعرفي، أن الجملة المدمَجة تتضمن اعتقاد المتكلم، فإنها، في استعمالات الأفعال الكلامية، تتضمن إثباتا أو استفهاما أو أمرا. وهذان النمطان من تمثيلات التمثيلات يعكسان جزئيا تنوع قدرات تمثيلات التمثيلات لدى البشر. ومن ذلك استدلال سبربر (1997) على أن الاستعمالات المعرفية تتطلب بالدرجة الأولى قدرات تمثيلية معرفية، أي نظرية للذهن، بينما استعمالات الأفعال الكلامية تتطلب بالدرجة الأولى قدرات تمثيلية تواصلية.

ويمكن أن نستخلص أن التمييز الثلاثي الذي تستدل عليه سويتسر (1990) يُمَكِّن من رصد الفروق القائمة بين الاستعمالات الممكنة لروابط الخطاب بالنظر إلى ما تتطلبه هذه الاستعمالات من قدرات تتعلق بنظرية الذهن وتمثيلات التمثيلات.

ومن روابط الخطاب التي يمكن أن تُستعمَل للتعبير عن علاقة سببية: لِأَنَّ وبِمَا أَنَّ. ويُعتبر لِأَنّ أقرب موافق لـ parce que في الفرنسية و because في الانجليزية.

- ومحور يتناول القيود الموضوعة على هذا الاكتساب، من خلال قيدين:

أ) قيد أنساق ما أصبح يسمى في علم النفس المعرفي: معرفة نواة. وهي أنساق تشكل قوام الفكر التأليفي غير اللغوي، وتكشف عنها دراسة البنية التصورية في المعرفة قبل – اللغوية لدى الرضع من البشر ولدى الرئيسات من الحيوانات غير البشرية. فتعتبر بذلك الأساس المعرفي لطبقة التصورات التي يمكن أن تستعملها اللغات الطبيعية؛

ب) قيد تقسيم العمل اللغوي بين وحدات معجمية ووحدات نحوية (صرفية – تركيبية)، وتخصيص الوحدات النحوية بطبقة من التصورات دون أخرى.

وهما قيدان نفترض تضافرهما من حيث إن أوّلَهُما يحدِّد بدرجة كبرى ثانيهما. كما نفترض ارتباطهما بسؤال الكفاية التفسيرية في النظرية الدلالية: لماذا يبنى المعنى اللغوي على التصورات المخصوصة التي تكشف عنها العبارات اللغوية، وليس على تصورات أخرى؟ لماذا هذه البنية من التصورات تحديدا دون غيرها؟ لماذا تفشي تصورات كتصور الفضاء وتوسعه لمقُوَلة تصورات أخرى، وكتصور العمل (الإرادي وغير الإرادي) وتصور الجعل وتصور القصد؟ وبعبارة أعم لماذا تبنى الدلالة في اللغة على تصورات كالموضوع (objet) والفضاء والحركة والحدث والحالة والزمن والمقدار والعدد والعمل والمنفذ الحي والقصد، إلى آخر اللائحة المحدودة من الأَوَّلِيَّات التصورية، وليس على تصورات أخرى؟

ولو كانت البنية التركيبية والبنية الدلالية متماثلتين في الشكل فعلا، لأمكن إرجاع الجواب عن السؤال المذكور إلى التركيب. لكن التعميمات الدلالية مستقلة إلى حد ما عن تحققاتها المعجمية والتركيبية، ولذلك لا يمكن أن يكون التركيب العامل الحاسم في الإجابة.

من ثمة يمكن أن تُعتبَر التصورات والعلاقات الدلالية المذكورة، ومنها، مثلا، ظاهرة توازي الحقول الدلالية المختلفة القائم على دالات وأدوار محورية رئيسة، مؤشرا على شيء بالغ الأهمية هو بنية التصورات أو بنية الفكر التأليفي كما تكشف عنها اللغة (انظر عن توازي الحقول غاليم 1999 ب).

وما دام يبدو أن اللغة ليست مرآة للفكر، نجد أنفسنا أمام سؤال آخر: هل يمكن أن تكون هناك طريق أخرى للتحقق من الافتراضات حول بنية التصورات أو الفكر (أي إجابة سؤال الكفاية التفسيرية)، غير الطريق التي تمر عبر تحليل الظواهر اللغوية؟

إذا كان المرء يعتقد أن الفكر ممكن فقط بفضل امتلاك اللغة، فإن الجواب لا يمكن أن يكون إلا بالنفي. وإلا، فإذا كان على النظرية الدلالية، المؤسَّسة على اللغة، أن تكشف عن بنية الفكر، فإننا ننتظر منها أن تتلاقى ونظرية الفكر غير اللغوي أو المعرفة النواة، التي ستشكل بذلك مجالا مستقلا للإثبات، وتمكننا من ربط نظرية المعنى ببقية الذهن، أي بالبنية التصورية وأصلها عند الإنسان.

إن للبشر وحدَهم القدرة على خلق فهم تصوري عميق وواضح. وليس هناك حيوان غيرنا يمكنه أن يتمعن في أسباب سرطان البنكرياس وعلاجه أو في الاحتباس الحراري. والرصد التام لأصل التصورات لدى الإنسان، يجب أن يعتمد ثلاثة مقاييس زمنية مختلفة وثلاثة أنماط متمايزة من العمليات:

- فخلال ملايين السنين، أنتجت العمليات التطورية قدرات تمثيلية فطرية. ويمكن اعتماد معطيات مستقاة من البشر الرضع ومن الحيوانات للاستدلال على طبيعة بعض هذه القدرات الفطرية.

1. عن اكتساب المعاني اللغوية

يستطيع الطفل العادي التمكن من معرفة لغته في حوالي سن العاشرة دون عملية تعليمية نسقية، وبناء على معطيات شحيحة وغير منظمة، وهو ما عرف في النظرية التوليدية بفقر المنبه؛ بينما يقضي اللغويون المختصون سنوات وعقودا طويلة دون التوصل إلى وصف كاف لهذه المعرفة. ويكمن التفسير الذي يقدمه افتراض النحو الكلي (في النظرية التوليدية) لهذه المفارقة التي يسميها جاكندوف (2002) مفارقة الاكتساب اللغوي، في أن الطفل يلج مهمة الاكتساب اللغوي وهو مزود بتصورات مسبقة عن الكيفية التي تبنى بها اللغة؛ فيبني الدخل اللغوي تبعا لما تمليه هذه التصورات المسبقة. وبخلاف هذا، فإن اللغويين، وهم يستعملون التفكير الصريح الواعي – وكمية من المعطيات (المستقاة من لغات العالم) أكبر بكثير مما يكون لدى الطفل –، يجدون أنفسهم أمام فضاء هندسي هائل الاتساع، عليهم أن يحددوا داخله خصائص النحو. ومن ثمة تكون مهمتهم أصعب من مهمة الطفل: إذ يجدون أنفسهم باستمرار وجها لوجه مع فقر حقيقي للمنبه. فليس هناك طفل عليه أن يقرر في مثل ما يواجه اللغويين، نحو: هل هناك مستوى عروضي مستقل في الصواتة؛ هل هناك قواعد اشتقاقية أم لا؛ هل تنتمي الظاهرة الفلانية إلى القواعد الاشتقاقية، أو قواعد التكوين المعجمي، أو القيود الوجاهية؛ ما نوع القواعد المسؤولة عن دمج الاسم. كما أن الطفل لا يجد نفسه مرغما على الاختيار بين الهندسات النحوية الكبرى كالنحو المعجمي الوظيفي وبرنامج الحد الأدنى وهندسة التوازي الثلاثي ونظرية النحو المعرفي ونظرية الأمثلية وهندسات نحوية أخرى كثيرة غير هذه.

وهذا، في حين تعتبر فرضية النحو الكلي أن الطفل، في مستوى معين (يمكن اعتباره مستوى حدسيا أو غريزيا)، يكون «على علم» بالاختيارات الصائبة. وتجدر الإشارة إلى أن لمفارقة الاكتساب اللغوي ما يوازيها في أي مجال معرفي آخر. فالطفل العادي يتعلم بسهولة الرؤية والاهتداء في الفضاء والعمل على الأشياء والاندماج في التفاعل الاجتماعي الغني؛ لكننا نبقى بعيدين كل البعد عن الوصف الكافي للعمليات الذهنية التي تكوّن هذه القدرات.

غالبا ما اعتبر تعلم الكلمات مباشرا وبسيطا، يقوم على إشارة الوالدين إلى الشيء المعني والنطق باسمه ليحصل الربط لدى الطفل. لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير، إذ يتعلم الطفل معاني الكلمات على أساس قدرات معرفية معقدة تشمل نسقا غنيا من التمثيلات التصورية، وقدرة على استنتاج مقاصد الآخرين، وحساسية للإشارات التركيبية إلى معنى الكلمة. وهي قدرات تمثل قيودا على الاكتساب المعجمي وحل مشاكله بكيفية مخصوصة دون أخرى. ومن ثمة تقدم أساسا متينا لرصد ميول الطفل أثناء الاكتساب وتفسير الظواهر التي يكشف عنها تعلم الكلمات.

ومن أبرز هذه الظواهر، قدرة الأطفال على اكتساب خصائص معنى الكلمة بسرعة فائقة على أساس معطيات خارجية فقيرة، وهو ما سمي «بالإسقاط السريع» (fast mapping). وميلهم إلى التعامل مع الكلمة الجديدة باعتبارها محيلة على الشيء كلِّه (لا على جزئِه).

ومن الظواهر المشكلة أيضا ما سبق لكواين (1960) أن سماه مشكل «عدم التحديد في الترجمة الجذرية» الملازم لتعلم أي كلمة جديدة، الذي عولج مبكرا في مجال تعلم معاني الكلمات. ومفاد ذلك الكيفية التي يتم بها تحديد إحالة أي كلمة جديدة. فهل تحيل كلمة نحو «كُلَيْب»، عند سماعها لأول مرة مقترنة بالإشارة إلى كلب: على ذلك الكلب المخصوص، أو الكلاب عموما، أو الحيوانات، أو الكائنات الشريرة، أو الكائنات الحية. بل هل تحيل على ذيل الكلب، أو شكله، أو لونه، إلى آخر الإمكانات الإحالية اللامحدودة.

وهناك، إلى جانب مثال الأسماء المعدودة المحسوسة، أمثلة الكلمات التي لا يستطيع الوالدان الإحالة بخصوصها على شيء معين ملموس، مثل: رأى، فَكَّر، غَضَبٌ، متى، لكن، وغيرها من مئات الوحدات ذات الإحالات غير المحسوسة التي يعرفها ابن السادسة.

إن أبحاثا كثيرة خصصت، وتخصص، للكيفية التي يفهم بها الطفل ما تعنيه الكلمات ويبني بها تصوره للعالم عبر مراحل اكتساب الوحدات المعجمية ومعانيها. وهي أبحاث من الخلاصات الأساسية التي يمكن استنتاجها منها، أن الطفل يأتي إلى تصور العالم وتعلم الكلمات المستعملة في وصفه، وهو مزود بعدد من الميول الداخلية التي تقيد افتراضاته عما يمكن أن تتعلق به الكلمات.

أ. معرفة الرئيسات

أما المجال الأول فقد تم الاستدلال فيه، منذ عقود وفي مستويات مختلفة، على أن الرئيسات تملك قدرا من الفكر الخلاق ودرجة من البنيات الإدماجية في ما تخطط له وتقوم به من أعمال. ومن ذلك ما وصفه ولفغنغ كوهلر Wolfgang Köhler منذ عشرينيات القرن الماضي، في كتابه الكلاسيكي عقلية القِرَدَة الذي ظهر سنة 1927، بخصوص سلوك الشامبانزي وحيوانات أخرى وهي تحل المشاكل التي كان يطرحها عليها. فقرد الشامبانزي، مثلا، ينقل الصندوق «من أجل أن» يتمكن من الصعود فوقه، «من أجل أن» يمسك بالموزة، «من أجل أن» يأكلها. وهذا يعني أننا بصدد فكر بدون لغة تماما.

وما دامت النظرية الدلالية المؤسَّسة على اللغة، يجب أن تكشف عن بنية الفكر، فإننا ننتظر منها، كما أسلفنا، أن تلتقي ونظرية الفكر غير اللغوي. وطالما أمكننا أن نصوغ فرضيات حول ما هي العناصر التي يجب أن توجد في فكر الشامبانزي من أجل تفسير سلوكه، ينبغي أن نتوقع وجود عناصر مماثلة في فكر الإنسان، وإن كانت أكثر تطورا بكثير.

ويُعتبَر حقل الفضاء، داخل نظرية الأدوار المحورية، الحقل المهم الأول من مجالات الفكر المبنيَن المرشحة تلقائيا لأن تكون مشتركة بين الإنسان والقِرَدة. كما أن لهذه الأخيرة أيضا مفهوما معينا للجعل. ومن ثمة قد نجد أنفسنا، كما يقول جاكندوف (2014)، أمام التساؤل عما إذا كان توسع الأدوار المحورية إلى حقول دلالية أخرى إنجازا بشريا خالصا. وتتعلق إجابة هذا السؤال جزئيا، بطبيعة الحال، بما يمكننا أن نعرفه بخصوص الكيفية التي يفهم بها الشامبانزي أو رئيسات أخرى هذا العالم.

والحقل المهم الثاني في الفكر غير اللغوي لدى الرئيسات هو معرفتها الاجتماعية، أي كيف تفهم القِرَدة التعامل الاجتماعي في ما بينها. وقد أوضحت أعمال شيني Cheney وسيفارت Seyfarth 1990 و2007 بهذا الخصوص، أن المعرفة الاجتماعية لدى الرئيسات مجال مبني من مفاهيم لا تُدرَك بالحواس إلا بكيفية غير مباشرة، كالسيطرة، والقرابة، وأنماط التزاوج، والتحالف، والانتماء إلى المجموعة، وبوادر نظرية الذهن. فظواهر «إعادة توجيه الاعتداء» عند قرود الفيرفيت، مثلا، تكشف عن درجة ملحوظة من التفكير المجرد، المعقد البِنَاء، المرتبط بعلاقات المجموعات القرابية وما تقتضيه من مفاهيم كالانتماء والثأر والجزاء. فإذا هاجم القرد أ القرد ب، من المحتمل جدا أن يهاجم ب (أو قريب له) قرد آخر (ج) من المجموعة التي ينتمي إليها أ. ويعني هذا وجوب إسناد سلسلة من الأفكار إلى ب (أو إلى قريبه) لتفسير هذا السلوك، منها أن ب (أو قريبه) يعرف أن أ هاجم ب، وأن الثأر هو الرد الملائم، وأن ج عضو في مجموعة أ، وأن المجموعات القرابية متعادلة فيما يخص الهجوم والجزاء، وأن ذلك كله يخول لـ ب (أو قريبه) مهاجمة ج.

إن كل ما تقوم به القِرَدة يبدو مألوفا وله مقابلات بديهية في السلوك الاجتماعي البشري. فقد عرف الناس منذ قرون أن أشبه الكائنات بالإنسان هي القردة. إلا أن الدارسين توصلوا إلى هذه النتيجة، دون أن يعرفوا شيئا على الإطلاق عن خصائص الرئيسات التي تجعلها شبيهة بالإنسان، وهي خصائص حياتها الاجتماعية.

وتظهر الدراسات التجريبية والملاحظة المعمقة المتأنية الطويلة الأمد أن قرود البابون (baboons)، قادرة على تعرف الشركاء باعتبارهم أفرادا، وملاحظة سلوكهم.

ويستدل شيني وسيفارت (2007) على أن المعرفة الاجتماعية لدى قرود البابون تبلغ حدا من التنوع والتعقيد يجعلها غير قابلة للتفسير من خلال آليات تعلم بسيطة؛ بل هناك ما يدل على وجود قدرات ذهنية مُعَدَّة فطريا لصياغة البنيات والقواعد التي تقوم عليها هذه المعرفة وما ينتج عنها من سلوك. ويدرس شيني وسيفارت (2007) المعرفة الاجتماعية لدى قرود البابون في ضوء فرضية «الذكاء الاجتماعي» التي يستدلان في إطارها على أن متطلبات العيش في مجموعات اجتماعية واسعة، فرضت ضغوطا انتقائية قوية على تطور ذهن الرئيسات.

أما عن بوادر نظرية الذهن، فإن الحجج العصبية التشريحية تنبئ بأن القردة، مثلها في ذلك مثل صغار بني البشر، يمكنها أن تكون قادرة على تمثيل حالات ذهنية بسيطة كالانفعالات العاطفية والمقاصد، رغم عدم قدرتها على تعرف حالات أعقد كالمعرفة والمعتقدات.

بهذا تمثل معرفة الرئيسات مصدرا مستقلا للإثبات، يضاف إلى معطيات اللغة، في الاستدلال على بنية الدلالة واستقلالها، ومن ثمة تقييد النظرية الدلالية وربطها ببقية الذهن / الدماغ.

ب. معرفة الرُّضَّع

والمجال الثاني من مصادر الحجج المتعلقة بطبيعة الفكر غير اللغوي، هو المعرفةُ «قبل اللغوية» لدى الرُّضَّع من البشر، ومعطياتُ اكتساب اللغة. فما دامت أصوات الكلمات التي يجب الأطفال تعلمها لا تقدم أي فكرة عن معناها، فإن المعاني التي يستقر عليها الأطفال لابد أن تكون تصورات اكتسبوها قبل اللغة. وهي تصورات متنوعة وغنية، تشكل أنساق المعرفة النواة، كما سنرى في الفقرة الموالية، أساسا مكينا من أسسها.

ومن ذلك أن لهم، في سن خمسة أشهر، مفهوما للعدد (أو الإفراد) يكفي لتمييز موضوع واحد من اثنين أو ثلاثة؛ ويمكنهم تأويل أعمال الموضوعات الحية على أنها موجَّهة نحو هدف في استقلال عن مكان الهدف؛ وأنهم يعرفون، في الشهر الثالث عشر، أن عمل شخص في شخص آخر ينبغي تمييزه نحويا من عمل شخصين يقومان بنفس الشيء في استقلال عن بعضهما؛ ويعرفون، في الشهر السابع عشر، أن أسماء الأعلام يمكن أن تسند إلى الدمى دون العلب؛ ويعرفون، في سن السنتين، أن الشكل أكثر ورودا في مقوّلة الموضوعات من اللون أو الحجم أو النسيج؛ وأن الموضوعات الحية تغير شكلها خلافا لغير الحية؛ ويفهم الأطفال العميان، في سن ثمانية وعشرين شهرا، أن رأى تحيل على شكل من أشكال الإدراك، ويعتبرون أنها معادل تقريبي لفعل الإحساس؛ الخ. إلى غير ذلك مما يبين أن الأطفال في مرحلة ما قبل اللغة وفي المراحل المبكرة الأولى لتعلمها، يمتلكون تصورات تبنين، في نفس الآن، فهمهم للأحداث التي يلاحظونها، ولمحاولاتهم إسناد المعاني للكلمات.

هذان، إذن، مجالان يشكلان مصدرا من أبرز مصادر الحجج المتعلقة بطبيعة الفكر غير اللغوي، أو المعرفة النواة، كما سبق. وبقدر ما يعتبر هذا المصدر دليلا على استقلال الدلالة، أو الفكر، وعلى بنيتهما التأليفية، بقدر ما يمَكِّننا من معيار مستقل لتقييد / تقويم النظرية الدلالية، التي ينبغي، تبعا لذلك، أن تقوم في أساسها على نوع التصورات التي تكشف عنها المعرفة النواة.

1.1.2. أنساق المعرفة النواة وبعض خصائصها

لقد استدلت دراسات الرضع من بني البشر ودراسات الحيوان، التي اعتنت بأصول المعرفة في مجالي تطور الفرد وتطور النوع، على وجود عدد قليل متمايز من أنساق المعرفة النواة، التي تتضمن معظم التمثيلات التصورية الأولى لدى الرضع، وعلى أساسها تبنى باقي المهارات المرنة وأنساق المعتقدات الجديدة.

وتسمح هذه الأنساق بتمثيل الموضوعات غير الحية وتفاعلاتها الآلية، والمنفذين وأعمالهم الهادفة (أو الموجَّهة نحو هدف)، والمجموعات وعلاقاتها العددية المتعلقة بالترتيب والزيادة والطرح، والأمكنة في التصميم الفضائي وعلاقاتها الهندسية، وتعيين الشركاء الاجتماعيين.

وتشير كيري (2009) إلى أن من بين أنساق المعرفة النواة هذه، هناك ثلاثة تدعمها التجربة أكثر من غيرها، هي:

- عالم الموضوعات ذات الأحجام ومسافات البعد المتوسطة بما في ذلك مسارات حركتها، وعلاقاتها الفضائية، وتفاعلاتها الفيزيائية.
- وعالم المنفذين، بما في ذلك أهدافهم، وتفاعلاتهم التواصلية، وحالات انتباههم، وإمكاناتهم الجعلية.
- وعالم الأعداد، بما في ذلك الإفراد الموازي، وتمثيلات مقدار التناظر المتعلقة بالقيم الأساسية التقريبية للمجموعات، والتسوير القائم على المجموعات.

ويقوم كل نسق من أنساق المعرفة النواة على مجموعة من المبادئ التي تمكن من إفراد الكيانات في المجال المقصود، ومن القيام باستنتاجات حول سلوك هذه الكيانات. ويختص كل نسق، علاوة على ذلك، بمجموعة من الإشارات التي تدل على حدوده، والتي تسمح للباحث بتعيين النسق المعني عبر المهام والأعمار والأجناس والثقافات البشرية. وفي ما يلي تخصيص موجز لهذه الأنساق.

أ. تمثيل الموضوعات

يهتم النسق النواة الخاص بتمثيل الموضوعات (الذي يعتبر الأوفر حظا من الدراسة) بالمبادئ الفضائية – الزمنية للاتساق (المتعلق بتحرك الموضوعات باعتبارها مجموعات مترابطة ومحدودة)، والاستمرارية (المتعلقة بتحرك الموضوعات في مسارات مترابطة وبدون عائق)، والاتصال (المتعلق بعدم تفاعل الموضوعات عن بُعد). وتسمح هذه المبادئ لصغار البشر ولحيوانات أخرى بإدراك حدود الموضوعات، وبتمثيل الأشكال التامة للموضوعات التي تتحرك جزئيا أو كليا خارج مجال الرؤية، وبتوقع متى ستتحرك الموضوعات وأين ستستقر.

وتمكن ملاحظة بعض هذه المهارات في غياب أي تجربة بصرية، لدى حديثي الولادة من رُضَّع بني البشر، أو حديثي التفقيس من الفراخ. لكن حتى لدى الأطفال الذين لهم أشهر من التجربة البصرية، لا نجد أنساقا معرفية خاصة إضافية لتمثيل مقولات فرعية دالة بيئيا تهم موضوعات غير حية كالأطعمة والأثاث، والتفكير فيها؛ أو أنساقا للتفكير بخصوص كيانات غير حية، من غير الموضوعات، كأكوام الرمل أو السوائل. كما أن الرضع، علاوة على ذلك، لا يستطيعون تمثيل سوى عدد قليل من الموضوعات في الوقت الواحد (حوالي ثلاثة). وتقدم هذه النتائج الدليل على أن هناك نسقا واحدا ظاهر المعالم هو أساس تفكير الرضع في العالم غير الحي.

وبتتبع هذه المعالم كشف الباحثون في المعرفة الحيوانية، نفس النسق النواة الخاص بتمثيل الموضوعات لدى الرئيسات. فهذا التمثيل عند القرود، كما هو الأمر عند الرضع من بني البشر، يخضع لقيود الاستمرارية، والاتصال ويكشف عن قدرة تمثيلية لا تتجاوز حدودها مقدار الأربعة موضوعات.

وقد توصل الباحثون في العمليات المعرفية لدى الإنسان البالغ إلى أن نفس النسق يتحكم لديه في عمليات الانتباه الموجّه نحو الموضوعات. فالإنسان البالغ قادر على تتبع ثلاثة أو أربعة موضوعات متحركة، عندما توافق حدودها وحركتها، مثلا، قيود الاتساق والاستمرارية. ويخفق البالغون في تتبع الكيانات التي تتجاوز حدودُها هذا المقدار، والتي لا تخضع للقيود الفضائية الزمنية على الموضوعات. ويملك البالغ، بطبيعة

الحال، معرفة متقدمة بمجالات موضوعات أدق كالأطعمة والأدوات. وعندما تنبسط موارد الانتباه، مع ذلك، غالبا ما تخفق الخصائص التي تسم هذه التمييزات الدقيقة في التحكم في تمثيل الموضوعات، بينما تستمر الخصائص النواة في القيام بذلك.

إذا كان النسق النواة الخاص بتمثيل الموضوعات يتصف بالثبات عبر تطور الإنسان، فيمكن أن نتوقع أن يكون نسقا كليا. وتؤكد الدراسات الحديثة حول مجموعة البيراها (Piraha) الأمازونية هذا الافتراض. وهي مجموعة تبدو مختلفة إلى حد كبير عن أغلب المجموعات البشرية المعاصرة، من حيث اللغة، والثقافة، والمهارات المعرفية. فاعتبرت لغتها خالية من مفردات العدد الذي يفوق «اثنين»، أو من إمكانات تمييز الماضي من الحاضر، أو من الآليات التركيبية الأساسية المتعلقة بالتكرار والتسوير (إفريت Everett (2005. لكن أفراد البيراها، مع ذلك، يميزون الموضوعات من الكيانات التي ليست كذلك، ويتتبعون الموضوعات الخاضعة للقيود على المقدار.

إن التوجيه نحو الهدف، والفعَّالية، والصفة العرَضية، والمبادلة، واتجاه النظر، تعتبَر كلها مؤشرات على تمثيلات المنفذين، وتسمح بدراسة هذه التمثيلات لدى الحيوانات والإنسان البالغ. فالفراخ الحديثة التفقيس، والشامبانزي وقرود الرِّيص (rhesus monkeys)، حساسة لما يمكن أن يراه، أو لا يراه، الآخرُ الذي يمكن أن يكون مفترسا أو منافسا. وتتطابق نتائج هذه الدراسات مع المؤشرات الفيزيولوجية المتعلقة «بالخلايا العصبية المرآة» التي اكتشفت أولا لدى قرود المختبر، والتي تستجيب بشكل انتقائي لأعمال مخصوصة تقوم بها الذات أو يقوم بها الآخرون.

وتوجد هذه القدرة العاكسة للسلوك والنشاط العصبي لدى الإنسان البالغ أيضا؛ كما تقود تمثيلاتُ العمل الموجَّه نحو هدف، تفكيرَه الأخلاقي الحدسي. وتقدم هذه الخلاصات مجتمعة الدليل على وجود نسق نواة خاص بتمثيل المنفذين، قديم وثابت في مسار تطور الإنسان.

ج. تمثيل العدد

تقوم بنية النسق النواة الخاص بتمثيل العدد على مبادئ متميزة من مبادئ النسقين السابقين. ومن أبرز خصائص هذا النسق التي تعتبر موضوع اتفاق واسع بين الباحثين في المجال، ثلاث خصائص. أولا، تعتبر تمثيلات العدد غير دقيقة، وتزداد عدم دقتها بازدياد القيمة الأساسية. ثانيا، تعتبر تمثيلات العدد مجردة، فتنطبق على مختلف الكيانات التي تلتقطها مختلف الحواس، بما في ذلك مجموعات الموضوعات، ومتواليات الأصوات، ومتواليات الأعمال المدرَكة أو المنْتَجة. ثالثا، يمكن لتمثيلات العدد أن تقَارَن وتأتلف في ما بينها عن طريق عمليات الزيادة والطرح.

وقد اتضح وجود تمثيلات العدد بهذه الخصائص لدى الرضع والأطفال والبالغين من البشر، ولدى البالغين من الرئيسات. فالرضع يميزون بين عدد كبير من الموضوعات والأعمال والأصوات عندما تكون الكميات متحكَّما فيها، وتخضع تمييزاتهم لنسبة محدَّدة. كما يستطيع الرضع أيضا زيادة وطرح عدد كبير من الموضوعات. وتميز القرود البالغة، مثل البشر، بين عدد كبير من الأصوات بنسبة محددة، كما تزيد وتطرح عددا كبيرا من الموضوعات كذلك.

وبما أن التمثيلات النواة الخاصة بالعدد ثابتة عبر التطور، فينبغي أن تكون موجودة في كل الثقافات. وتؤكد هذه الفرضيةَ الدراساتُ التي تناولت مجموعة المونداروكو (Munduruku) الأمازونية، التي لا تملك عدًّا لفظيا اعتياديا، ولا كلمات دالة على عدد محدّد فوق «الثلاثة». فتميز هذه المجموعة بين أعداد واسعة بنسبة محددة من الدقة، تماما مثلما يفعل البالغون المتعلمون في بلد أوربي كفرنسا. كما أن البالغين من المونداروكو مثل أطفال الولايات المتحدة الأمريكية قبل سن التمدرس، يمكنهم إنجاز عمليات تقريبية للزيادة والطرح: فيمكنهم زيادة مجموعتين متتاليتين من الموضوعات، والحكم على المجموع الناتج عنهما، هل هو أكثر أو أقل من مجموعة ثالثة من الموضوعات أو متوالية من الأصوات.

د. تمثيل الأمكنة

يلتقط النسق المعرفي النواة الخاص بتمثيل الأمكنة هندسةَ المحيط، من مسافات وزوايا، وإحساس بالعلاقات بين المساحات الممتدة في التنظيم الفضائي المحيط. ولا يمثل هذا النسق الخصائص غير الهندسية للتنظيم الفضائي المذكور، كلون المساحة أو رائحتها. كما يخفق، في ظل شروط

معينة، في التقاط الخصائص الهندسية للموضوعات المتحركة. وفي حال فقدان الاتجاه يوجِّه الأطفالُ الصغار أو الحيوانات أنفسهم بما يوافق هندسة التنظيم الفضائي. وحين يستعملون معالم معينة، يبدو أن بحثهم يقوم على عمليتين متمايزتين: عملية إعادة توجيه تعتمد الهندسة فحسب، وعملية ترابطية تربط مجالات التنظيم الفضائي المحلية بموضوعات مخصوصة.

وللإنسان البالغ قدرة على استعمال أوسع للمعالم، لكنه، هو أيضا، يلجأ في المقام الأول إلى الهندسة السطحية عندما يفقد الاتجاه في سياق تداخلات لفظية أو فضائية. وتوحي دراسات حديثة انصبت على مجموعة المونداوروكو بأن الإحساس بالهندسة إحساس كلي، وبأنه يمكن الأطفال والبالغين الذين لهم قدر ضئيل من التعليم أو لم يتلقوا تعليما أصلا، من استخراج المعلومات الهندسية واستخدامها سواء في الصور (والرسوم) أو في التنظيمات الفضائية للمساحات الممتدة.

والخلاصة أن البحث في المعرفة عند الحيوان وعند الرضع والأطفال والبالغين من البشر في ثقافات مختلفة، يشير إلى أن الذهن البشري ليس عبارة عن جهاز واحد عام الغرض يكيف نفسَه مهما كانت البنيات والتحديات التي يعرضها المحيط. إن البشر يتعلمون بعض الأشياء بسهولة، ويتعلمون أشياء أخرى بصعوبة أكثر، باستعمال أنساق معرفية نوعية ذات معالم وحدود معينة. كما لا يبدو أن الذهن البشري مجموعة «كثيفة القوالب» مكونة من مئات أو آلاف الأجهزة المعرفية الخاصة الغرض. بل يظهر أن الذهن مبني على عدد قليل من الأنساق النواة، من ضمنها الأنساق الأربعة المذكورة آنفا.

وهناك نسق معرفي نواة آخر، ذو جذور في ماضي الإنسان التطوري، يظهر في مرحلة الطفولة، ويشكل أساس التعلم والتفكير لدى الأطفال والبالغين. إنه النسق الخاص بتعرف الشركاء الاجتماعيين المحتَمَلين وأعضاء المجموعة الاجتماعية، والتفكير فيهم.

2.1.2. المعرفة النواة وأنماط التمثيلات الذهنية

تعتبر كيري (2009) أن تخصصات العلم المعرفي اليوم، تمتلك الأدوات التجريبية والنظرية التي تحول المعضلات الفلسفية القديمة إلى مشاكل علمية واضحة نسبيا. ويصدق هذا على التقدم الذي أحرزه العلم في حل النقاش الدائر حول وجود معرفة فطرية، وطبيعتها، وشكلها، ومحتواها. ومن أنماط هذه المعرفة الفطرية المعرفة النواة التي ذكرنا بعض أنساقها، والتي نشير، في ما يلي، إلى بعض ما يميزها من باقي أنماط التصورات الأخرى.

1.2.1.2. بين التمثيلات الإدراكية والتصورية

تعتبر التصورات (concepts) تمثيلات ذهنية. وهي لا تشكل، في الواقع، سوى جزء من مخزون التمثيلات الذهنية لدى الإنسان؛ لذلك يجب التمييز، داخل هذا المخزون، بين مختلف أنماط التمثيلات الذهنية، وتعيين تلك التي تعتبر تصورات منها. وهذه الأخيرة نمطان من التمثيلات التصورية: نمط مدمج في أنساق المعرفة النواة، ونمط مدمج في أنساق المعرفة الصريحة، كالنظريات الحدسية.

وبالنظر إلى تعدد أنماط التمثيلات الذهنية واختلافها، يشترك ويليام جيمس James W (1981/1890). وكواين Quine (1977) وبياجي Piaget (1954)، في القول بإمكان إقامة تمييز أساسي بين تمثيلات حسية (sensory)، في الطرف الأول من متصل (continium) التمثيلات الذهنية، وتمثيلات تصورية في طرفه الثاني. ويعتبر الثلاثة أن التمثيلات الحسية / الإدراكية (sensory/ perceptual) تمثيلات أوَّلية من الناحية التصورية، وأن القدرات الذهنية التي يتفرد بها الإنسان هي التي تكمن وراء العمليات التطورية التي تتحوَّل عبرها التمثيلات الحسية / الإدراكية إلى تمثيلات تصورية. ويعتقد الثلاثة كذلك أن الحيوانات، مثلها مثل الرضع من البشر، لا تحمل تمثيلات تصورية.

ومن المداخل إلى تحديد الفرق بين التمثيلات الإدراكية والتصورية، أن الأولى، المتعلقة بتمثيل خصائص التجربة المباشرة (كمظهر الأشياء ورائحتها ومذاقها وملمسها)، تختلف من جوانب متعددة عن الثانية (أي التمثيلات التصورية) التي تخص ماهية الأشياء، وتصنيفَ الكيانات إلى أنواع مجردة على أسس نظرية، وخلقَ كيانات لا دليل حِسّي عليها. لكن هذا التمييز بين الإدراكي والتصوري يستلزم إقامته على أساس محتوى التمثيلات. فيُفترَض أن تمثيلات الأشكال، كالمربع، حسية أو إدراكية، وأن تمثيلات الكيانات الحية أو الأعداد تصورية. إلا أن هذا ليس صحيحا، إذ نملك كلمات للأشكال، ونطور نظريات هندسية صريحة حولها، ونظريات عن الكيفية التي تُبْنَى بها تمثيلات الشكل انطلاقا من بنياتِ دَخْلِ (input) شبَكيَّةِ العين. وبالمقابل، نملك عمليات إدراكية تخلق من الدخل الحسي تمثيلات لكيانات مجردة كالعدد والمنفذ والسبب.

وإذا نظرنا إلى النمطين من التمثيلات من زاوية دورهما الاستنتاجي، فلا شك أن بينهما اختلافا من جوانب متعددة. فللتمثيلات الحسية / الإدراكية أدوار استنتاجية مختلفة عن التي للتصورات وأفقر منها. إنما تمثل الهُنَا والآن، ولا يستدعي كونُ شيء ما أحمرَ، مثلا، استنتاجا ذا بال؛ بينما هناك استنتاجات أغنى يستدعيها تعيينُ كيان معين باعتباره منفذا، أو تعيين المادة التي يتكون منها كيان ما. والتمثيلات التصورية، بخلاف الحسية / الإدراكية، مدمجَة في بنيات تصورية من قبيل النظريات الحدسية التي تتحمل هذا الدور الاستنتاجي الغني. كما أنها تمثيلات تصوغ بنيات سببية وتفسيرية، وتندمج في تمثيلات تصورية أخرى.

ولقد سبق لفودور Fodor (1983) أن اعتمد معيار الدور التصوري (أو الوظيفة التصورية) لتمييز العمليات الحسية / الإدراكية المحيطية القالبية، ودورُها تحليل الدَّخْل، من العمليات التصورية المركزية غير القالبية، ودورُها تثبيت المعتقدات. فالذهن عنده قائم على نمطين مختلفين من الأنساق المعرفية أو القوالب:

- أنساق الدَّخْل (input systems) (أو الأنساق المحيطية)، وتمثلها العمليات القالبية (كنسقي الإدراك البصري والإدراك اللغوي) التي تقدم إلى الفكر مادته وتحول الإحساسات الناتجة عن تفاعل الذات مع محيطها إلى تمثيلات قابلة لأن يعالجها الفكر. فأنساق الدخل تحول «إحساسات» خام إلى «إدراكات» ذات بعد قصدي، أو تَعْرض العالم على الفكر.
- الأنساق المركزية (أو «الفكر»)، وتمثلها العمليات غير القالبية التي تقارن بين التمثيلات، وتقوم بحساب استلزاماتها وبتثبيت المعتقدات العلمية.

وترتبط قالبية أنساق الدخل بامتلاكها مجموعة من الخصائص لا تملكها العمليات المعرفية المركزية، وتجعل منها أنساقا أشبه بردود الأفعال المنعكسة في سرعتها وإلزاميتها. ومن هذه الخصائص: خصوصية المجال، التي تتعلق بالقيود الموضوعة على «الفرضيات» التي تستعملها القوالب لمعالجة المعلومات، فتجعل منها قوالب متخصصة أو خاصة المجال (domain specific)، من حيث إنها لا تنطبق إلا على طبقة محددة من المنبهات، كقالب إدراك اللغة الذي ينطبق على المنبهات اللغوية دون غيرها؛ والمنع من حيث المعلومات، المتعلق بالقيود على كمية ونوع المعطيات التي يمكن أن تحللها الأنساق القالبية.

أما الأنساق المركزية فتشكل عند فودور (1983) أسرة من الأنساق المعرفية غير القالبية، بالنظر إلى اختلافها عن أنساق الدخل في الطابع الحسابي، وخاصة فيما يتعلق بخصوصية المجال وبالمنع من حيث المعلومات. فالوظيفة المميزة للأنساق المركزية هي تثبيت المعتقد الإدراكي (fixation of perceptual belief) أو العلمي. ويتم ذلك عن طريق النظر، بكيفية متزامنة، في التمثيلات التي تقدمها مختلف أنساق الدخل، وفي المعلومات المتوافرة في الذاكرة، للوصول إلى أفضل فرضية ممكنة حول الصورة التي يجب أن يكون عليها العالم، بناء على هذه الأنواع المختلفة من المعطيات. ولذلك، فالآليات التي تنجز عمليات مثل هذه لن تكون خاصة المجال، ما دام تثبيت المعتقد يتم عن طريق استغلال كل المعلومات المتوافرة لدى الذات، بغض النظر عن المجالات المعرفية التي تستخلص منها هذه المعلومات. ويتضح هذا خاصة في مجال الإنجاز اللغوي. فاستعمال اللغة الفعلي يتطلب استخدام معلومات متنوعة: مرئية أو مسموعة أو ذاكرية أو فكرية عامة. وطبيعي أن يكون مجال الآليات المسؤولة عن هذا الاستخدام أقل خصوصية من مجال الدخل.

كما أن تثبيت المعتقد العلمي غير مانع من حيث المعلومات. وذلك لاتصافه بخاصيتين: فهو إيزوتروبي (isotropic) من جهة، وكوايني (Quinean) من جهة أخرى.

والمقصود بالخاصية الأولى أن الوقائع الواردة في إثبات فرضية علمية يمكن استخلاصها من أي مصدر في حقل الحقائق التجريبية التي سبق التوصل إليها. وباختصار، فإن أي شيء يعرفه العالم يعتبر، مبدئيا، واردا في تحديد أي شيء آخر يمكن أن يعتقده. وهذا يعني أن الإثبات العلمي يقوم على عمليات معرفية «عامة» وشاملة، ومن ثمة فهي غير مانعة من حيث المعلومات.

والمقصود بخاصية الكوايني، في الإثبات العلمي، أن درجة الإثبات التي تسند إلى فرضية معينة، تكون تابعة لخصائص نسق المعتقدات العلمية بكامله؛ أي أن صورة العلم في كليتها تؤثر في المنزلة الإبستيمية لأي فرضية علمية، وذلك من حيث تدخل اعتبارات مثل البساطة والمعقولية أو المحافظة، في إثبات فرضية معينة بشكل أفضل من إثبات فرضية أخرى منافسة تقدم نفس التنبؤات التي تقدمها الفرضية الأولى بصدد المعطيات المعالجة. إن جوهر الخاصية الكوايني هو أن اعتبارات كالبساطة والمعقولية والمحافظة، خصائص تملكها النظريات بفضل علاقتها بالبنية الكلية للمعتقدات العلمية في مجموعها. فقياس المحافظة أو البساطة يعتبر هنا، قياسا على الخصائص الشاملة لأنساق المعتقدات العلمية. وهذا ما يميز خاصية الكوايني من خاصية الإيزوتروبية رغم التعالق الوثيق بينهما.

2.2.1.2. بعض خصائص تمثيلات المعرفة النواة

تشكل تمثيلات المعرفة النواة نمطا ثالثا من البنيات التصورية، يختلف نسقيا عن الأنساق التمثيلية الحسية / الحركية والتصورية النظرية على حد سواء. ويملك الحيوان والإنسان معا أنساق معرفة نواة، كما بينا آنفا. وتعتبر هذه الأنساق الأساس التطوري للفهم التصوري لدى البشر. وعلى غرار الخصائص الحسية والإدراكية للعالم، يتم تعيين الكيانات في مجالات المعرفة النواة عن طريق أجهزة دَخْلٍ إدراكية فطرية قالبية.

وتختلف تمثيلات المعرفة النواة عن التمثيلات الحسية والإدراكية في امتلاكها دورا استنتاجيا تصوريا غنيا تلعبه في الفكر، بما في ذلك فكر الرضع. وتُعتَبَر التمثيلات التي تكون خرجا لأنساق المعرفة النواة مندمجة من الناحية الاستنتاجية؛ لذلك يمكن اعتبارها، بهذا المعنى، «مركزية» بتعبير فودور (1983).

وتختلف تمثيلات المعرفة النواة عن التمثيلات التصورية التامة الوضوح التي تصوغ النظريات الحدسية. وذلك من حيث إن الدور التصوري الذي للتصورات التي تصوغ المعرفة النواة أقل غنى بكثير من ذلك الذي للتصورات المدمَجَة في النظريات الحدسية. كما تختلف تصورات المعرفة النواة، أيضا، في الآليات التي تربطها بالكيانات التي تمثلها. فهناك، بالإضافة إلى الترابطات السببية التي تتيحها محللات الدخل الإدراكية الفطرية، عواملُ أخرى تلعب دورا في تحديد إحالات التمثيلات التصورية التامة، منها العمليات الاجتماعية التي وصفها كريبك Kripke (1972 / 1980) وبوتنم Putnam (1975). إنها إحالات يلعب الدور الاستنتاجي أهمية حاسمة في العمليات التي تمكن من تحديدها. وأخيرا، فاكتساب المعرفة في المجالات النواة تتحمله أجهزة التعلم الخاصةُ المجالِ الفطريةُ، بينما ليس الأمر كذلك في تعلم النظريات الحدسية. أما المقصود بكون تمثيلات المعرفة النواة تمثيلات فطرية، فهو أنها ليست خرجا لعمليات التعلم.

ونفترض أن تقييد المعرفة النواة لبنية التصورات لدى الإنسان، ومن ثمة للنظرية الدلالية، هو الذي يحدد إلى درجة كبيرة قيدا ثانيا نوضحه في ما يلي. وهو القيد الذي يؤهل إلى حد كبير تصورات معينة دون أخرى لأن تُبْنى في نحو اللغات الطبيعية، وينتج تقسيما للعمل في هذه اللغات بين وحدات معجمية ووحدات نحوية (صرفية – تركيبية).

2.2. قيد تقسيم العمل اللغوي بين وحدات معجمية ونحوية

تشمل اللغات نوعين من العناصر الدالة: وحدات معجمية تحيل على الأشياء والأحداث والخصائص، مثل الأسماء والأفعال والصفات تباعا؛ ووحدات نحوية تربط الأولى ببعضها وبعالم الخطاب، مثل الروابط والحروف والإشاريات ولواصق العدد والإعراب والزمن الخ.

ولقد اعتبر عدد من الباحثين أن الوحدات النحوية:

- تعبر عن مجموعة كلية ومحدودة من المعاني (تصورات قابلة لأن تبنى في النحو (grammaticizable))؛
- تشكل طبقة مغلقة وقليلة من العناصر، بخلاف طبقة الوحدات المعجمية الواسعة والمفتوحة.

فأدى الاعتبار الأول إلى افتراض مفاده أن مجموعة من المعاني تكون «مخصَّصة مسبقا» للغة؛ بينما أدى الاعتبار الثاني إلى افتراض أن هذه الوحَدات النحوية تلعب دورا حيويا في اكتساب اللغة وتحليلها.

ومن الافتراضات المتعلقة بالربط بين «سِمَتي تصميم» اللغة هاتين، أن الذهن / الدماغ مزود باستعدادات قبلية لربط أنماط خاصة من المعاني بعناصر نحوية وبنيات تركيبية. فيكون الربط بين سمتي التصميم (أي المجموعة المحدودة من المعاني والمجموعة المحدودة من الوحدات النحوية) متعلقا بقالب اللغة، في علاقته بقوالب أو قدرات أخرى.

هكذا تكشف اللغات عن أن الصرفيات والتراكيب النحوية ترمّز أنماطا مخصوصة من التصورات، كسمة الجمع في الأسماء، وعلاقات الملكية والتعريف، في اللغة العربية والأنجليزية. وقد لا توسم مثل هذه التصورات في لغات أخرى، وتوسم تصورات غيرها كشكل الأشياء أو مادتها. وما يبدو هو أن هذه التصورات التي تبنى في النحو محدودة العدد.

ويعتبر ليونار تالمي (Talmy) من أبرز اللغويين الذين اهتموا بتفاصيل هذا الموضوع؛ واستنتج في أعماله (1983 و1985 و1988) أن هناك عددا كبيرا من التصورات يبدو أنها لا تدخل في دائرة التعبير النحوي. من ذلك أننا لا نعرف لغة تخصص صرفيات نحوية في الأسماء للون الأشياء؛ أو صُرفات في الفعل تدل على حصول الحدث في الليل أو في النهار، أو في يوم بارد أو حار. ومن المجالات التصورية التي لاحظ تالمي (1985) أنها تبنى نحويا في اللغات باعتبارها صرفيات أو لواصق تلحق الفعل: الزمن (العلاقة الزمنية بحدث القول)، الجهة، الجعلية، البناء (للفاعل أو لغير الفاعل)، الوجه (التعييني أو الإرادي أو الاختياري)، نمط الفعل اللغوي (الخبري أو الاستخباري أو الأمري)، العمل في الذات أو في الآخر، الشخص (ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب)، عدد المشاركين في الحدث (المفرد والمثنى والجمع)، جنس المشاركين في الحدث، الوضع الاجتماعي للمتخاطبين...الخ. ومن التصورات التي لاحظ تالمي أنها لا تخضع لمثل هذا البناء النحوي: لون المشارك في الحدث، مكان وقوع الحدث (في الداخل أو في الخارج)، حالة المتكلم الذهنية (نفور أو اهتمام، الخ)، العلاقة بأحداث مشابهة («فقط»، «حتى»، «عوض»). ومن الأسئلة الكبرى التي تطرح بهذا الخصوص: لماذا نجد أن بعض المجالات التصورية تقع خارج دائرة التعبير النحوي؟

ويمكن تلخيص هذه الأمثلة من التصورات التي تدخل في دائرة التعبير النحوي أو لا تدخل فيها، تبعا لتالمي (1985)، في الجدول التالي:

تصورات تدخل في دائرة التعبير النحوي	تصورات لا تدخل في دائرة التعبير النحوي
صرفيات أو لواصق تلحق الفعل للتعبير عن: الزمن (العلاقة الزمنية بحدث القول)، الجهة، الجعلية، البناء (للفاعل أو لغير الفاعل)، الوجه (التعييني أو الإرادي أو الاختياري)، نمط الفعل اللغوي (الخبري أو الاستخباري أو الأمري)، العمل في الذات أو في الآخر.	صرفيات نحوية في الأسماء للتعبير عن: لون الأشياء؛ صرفيات أو لواصق تلحق الفعل للتعبير عن: لون المشارك في الحدث، مكان وقوع الحدث: في الداخل أو في الخارج؛ وقوعه في الليل أو في النهار؛ وقوعه في يوم بارد أو حار؛ حالة المتكلم الذهنية

الشخص (ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب)، عدد المشاركين في الحدث (المفرد والمثنى والجمع)، جنس المشاركين في الحدث، الوضع الاجتماعي للمتخاطبين... الخ. صرفيات نحوية في الأسماء للتعبير عن: الجمع، علاقات الملكية، التعريف، شكل الأشياء، مادتها.	(نفور أو اهتمام، الخ)، العلاقة بأحداث مشابهة («فقط»، «حتى»، «عوض»).

ومن الملاحظ أيضا، أن نجد داخل أي مجال قابل للبناء النحوي قيودا على نوع التمييزات التي توسم نحويا وعلى عددها، كما هو الحال في القيود على التصورات (أو كمية المادة التصورية) التي يمكن دمجها في صرفية نحوية واحدة. مثال ذلك أن ظرفا مثل: عَبْر، يفيد حركة تعبر مسارا، كما في نحو: «عبر الغابة» و«عبر الماء»؛ لكنه لا يعيّن شكل المسار أو هندسته (متعرّج، مستقيم، دائري)، أو طبيعته أو امتداده الدقيق. ومن القيود كذلك، أن النحو يقوم على تمييزات نسبية وليست محدَّدة الكم («مكمَّمة»). من ذلك أن اسمي إشارة مثل: «هذا» و«ذاك» محايدان بالنظر إلى قدر المسافة؛ فيمكننا أن نقارن «هذا الأصبع بذاك الأصبع»، كما نقارن «هذا الكوكب بذاك الكوكب».

ويستنتج تالمي (1988) من مثل هذه الأمثلة وغيرها، أن التصورات التي لا يعبر عنها نحويا تشمل التصورات الهندسية الأوقليدية، مثل المسافة المحددة، والحجم المحدد، والشكل الخارجي المحدد، والزاوية المحددة؛ كما تشمل المقاسات المكمَّمة وعددا من خصوصيات الكم؛ وكلها خصائص مطلقة أو محدَّدة.

بينما تتعلق التصورات القابلة للبناء النحوي، بالتصورات الموضعية (topological) أو النسبية. ويجمل تالمي نتائجه في لائحتين. تضم الأولى الخصائص غير الموضعية وغير القابلة للبناء النحوي، مثل: الحركة والمكان أو الزمن المحدَّدين أو المكمَّمين الخ. وتضم الثانية الخصائص الموضعية القابلة للبناء النحوي، مثل: النقطة، والامتداد الخطي، والمنطقة، والإفراد، والجمع، والمِثْل، والمختلف، الخ.

وأخيرا، يستدل تالمي (1988) على عدد من القيود التي تقيد المحتوى الدلالي لأي تصور مخصص نحويا. وهي قيود تنطبق على الأسماء والأفعال معا؛ ومثالها الانتقال من المفرد إلى الجمع بخصوص التمييز العددي، في الأسماء (طائر، طيور) وفي الأفعال (كسَر، كسَّر). ويسمي تالمي هذه القيود: مقولاتُ التصورات المخصصة نحويا؛ ومنها: البُعد (متصل / منفصل)؛ التعداد (الواحد / المتعدد)؛ المحدودية (محدود / غير محدود)، الخ.

وجوابا عن السؤال: لماذا تحظى هذه الأنماط من التصورات، بالضبط، بتعبير نحوي عبر اللغات؟ يفترض تالمي (1988) أن ذلك يقوم على أساس معرفي؛ فيعتبر أن «التخصيصات النحوية في الجملة [...] تقدم إطارا تصوريا أو [...] بنية هيكلية [...] للمواد التصورية المخصصة معجميا»؛ أي أن العناصر النحوية تقدم مخططا عاما للتجربة. ويعتبر هذا المخطط العام نتيجة لمخطط عام في المستوى التصوري غير اللغوي؛ لذلك يمثل تالمي (1988) بتوضيح التوازي بين البنينة في الإدراك البصري وفي اللغة. ومثل هذا تلاحظه لاندو وجاكندوف (1993) بخصوص ربط المجموعة المحدودة لحروف المكان في اللغة بقالب فرعي في الدماغ مختص في ترميز أمكنة الأشياء: «إن افتراضنا هو أن هناك عددا قليلا من الحروف [المكانية] لأن طبقة العلاقات الفضائية المعَدَّة لأن تعبِّر عنها اللغة – أي التصورات التي يمكن أن تعنيها الحروف – محدودة جدا».

هكذا يرتبط تقسيم العمل اللغوي بين الوحدات المعجمية والوحدات النحوية، حسب تالمي (1985)، بمجموعة فطرية من التصورات المعَدَّة للقيام بوظيفة مُبَنْيِنَة في اللغة؛ فتسهل هذه المعرفة الفطرية مهمة الاكتساب. وهو نفس الافتراض الذي نجده عند بيكرطون (1981). كما نجده عند بنكر (1984) الذي يفترض أن الطفل يمكنه أن يستخرج السمات الدلالية الممكن ورودها نحويا والمتعلقة بالمشاركين في الجملة (مثل سمات العدد والشخص والجنس، الخ..)؛ وبالقضية كلها (مثل سمات الزمن والجهة والموجة، الخ).

وعموما، فمن أبرز الاتجاهات التي سار فيها البحث عن المبادئ المعرفية الأساسية التي تقوم عليها طبقات الوحدات النحوية في مقابل طبقات الوحدات المعجمية، اتجاه يفترض سُلَّمِيَّات قبلية لترتيب التصورات تبعا لإمكانات التعبير عنها نحويا، كما عند تالمي (1988)، وبنكر (1984). واتجاه يربط فئة التصورات القابلة للبناء النحوي بالتطور المعرفي لدى الطفل؛ فتكون التصورات الأولى التي توسَم نحويا في لغة الطفل هي التصورات التي توافق «الأحداث النموذجية» في تصوره. ومن أمثلة ذلك أن الأحداث المتمثلة في عمل الأيدي على الأشياء – أو «مشهد النشاط العملي» – تعتبر نقطة البداية لاكتساب صور نحوية كصُرفة المنصوب مثلا.

«استعمال اللغة شكل من أشكال العمل المشترك حقا. والعمل المشترك عمل تقوم به مجموعة من الأشخاص يعملون بالتنسيق مع بعضهم البعض. [...] إن فِعْل الأشياء باللغة [...] يختلف عن حاصل الجمع بين متكلم يتكلم وسامع يسمع. إنه عمل مشترك ذاك الذي يتكشف عندما يقوم المتكلمون والسامعون [...] بأداء أعمالهم الفردية بشكل منسق داخل مجموعات». (كلارك 1996، ص. 3).

«ليس الأمر مقصورا على أن عالمنا المتصَوَّر هو واقعنا الخاص بنا، بل نتحقق باستمرار من أنه يوافق عالم الآخرين. وبقدر ما نحس بالتوافق، نعتبر التصوُّرَ المشتركَ صادرًا عن «الخاصية الموضوعية للعالَم»؛ ومن ناحية أخرى، بقدر ما نحس بالتعارض نكُون مجْبَرين على الاعتراف بالذاتية، ويصبح إحساسُنا بما هو «موضوعي» أقلّ استقرارا» .جاكندوف (2002)، ص. 332.

إن من الافتراضات الأساسية، في النظرية اللسانية (النفسية)، ومنها نظرية الدلالة التصورية، أن البنية التصورية تنتمي إلى مستعمل اللغة الفرد؛ أي أن التصورات التي تحيل عليها الكلمات توجد في رؤوس الأفراد. لكن من البديهي، من جهة أخرى، أن اللغة ظاهرة اجتماعية ولا تظهر إلا في الجماعة. فكيف تصبح البنيات التصورية الفردية اجتماعية؟ وكيف يمكن أن نتحدث عن وجود معنى أو إحالة متفق عليهما بعبارة معينة؟ أو كيف نتفادى برج بابل؟

ترتبط مثل هذه الأسئلة بسؤال أعم في النظرية اللسانية عموما، ولسانيات الخطاب خصوصا، هو سؤال التواصل: إذا كان بناء التصورات فرديا في جوهره، فكيف يمكننا أن نتواصل؟ أو ما هي الأصول المعرفية للقدرة على الاشتراك في الإحالة على التصورات، والقدرة على الاشتراك في القصد إليها، ومن ثمة القدرة على التواصل؟

لابد إذن أن يكون من مقومات الإجابة عن سؤال التواصل بلورة معطيات تسهم في بناء نظريات كنظرية الإحالة ونظرية القصد المشترك ولما يستلزمه من تعاون. ولذلك فهي إجابة متعددة الأبعاد ولا تدخل حيز الإمكان إلا في إطار أنموذج علمي استكشافي طبيعي، كالأنموذج المعرفي، يسمح بترابط سلس ومؤسَّس بين موضوعات تنتمي إلى مجالات علمية مختلفة؛ وفي إطار نظرية، كنظرية الدلالة التصورية، تقوم على تفاعل مختلف القدرات المعرفية، الإدراكية والتصورية، وتضافرها لإنتاج التصورات داخل بنية الذهن / الدماغ المعرفية الشاملة.

ونتناول في ما يلي جوانب من تحديد الأسس المعرفية لهذه التصورات اللازمة للتواصل اللغوي، من خلال ثلاثة محاور:

- نخصص في المحور الأول بعض أسس نظرية الإحالة؛
- ونخصص في المحور الثاني بعض الأسس المعرفية لتصور القصد المشترك؛
- ونبحث في المحور الثالث، في بعض آليات التعاون وأصوله.

1. عن نظرية الإحالة

1.1. الإحالة في الإطار التصوري

يعتبر السؤال التواصلي مشكلا حقيقيا في النظرية الدلالية النفسية التي تربط المعنى بأذهاننا الفردية، ومن ثمة يطرح السؤال حول الكيفية التي يمكننا بها أن نتواصل بصدد الموضوعات.

ذلك أننا لتفسير علاقة الجمل «بالعالم» يجب أن نحدد، ضمن أشياء أخرى، ما هو موجود في العالم كما تؤوله أذهاننا حتى تصدق عليه مثل هذه الجمل. فيرجعنا هذا إلى ضرورة نظرية للتمثيل الذهني تصف نظام العالم كما نؤوله، أي إلى نظرية للدلالة التصورية (النفسية). وإذا ثبت أن عالم التجربة («الواقعي») مدين بهذا القدر لعمليات التنظيم الذهنية، أصبح من الأمور الجوهرية في النظرية النفسية أن تميز بعناية مصدر الدخل الخارجي من عالم التجربة. فيسمى الأول عالما واقعيا ويسمى الثاني عالما مسقطا (projected world).

ولا تكون المعلومات التي تحملها اللغة معلومات بصدد العالم الواقعي. فنحن لا نستطيع الوصول الواعي إلا إلى العالم المسقط، أي إلى العالم كما ينظمه الذهن. ولا يمكن للغة أن تتحدث عن الأشياء إلا في حدود ما يسمح به هذا التنظيم. إن الكيفيات التي تتم بها التعالقات في النسق اللغوي لا تنفصل عن الكيفيات التي نجزئ بها العالم والتي تقوم على وسائلنا الإدراكية والمعرفية التابعة لقيود جشطلتية مختلفة. ومن ثمة فالمعلومات التي تحملها اللغة لا يمكن أن تكون إلا بصدد العالم المسقط، أي العالم كما تحدد تأويله الكيفية التي بنيت بها ذواتنا البشرية، أو القدرة التعبيرية لتمثلاتنا الداخلية.

بهذا يكون تصور الإحالة في النظرية التصورية كالتالي: يحكم المتكلم م في اللغة ل على العبارة ع، المقُولة في السياق س، بأنها تحيل على الكيان ك في العالم كما يتصوره م.

إن الإحالة في النظرية التصورية تابعة في أساسها لمستعمل اللغة الذي لا يمكنه أن يحيل على كيان معين دون أن يكون له تصور معين عنه.

وهذا يعني أن الكينونة في العالم كما يتصوره المتكلم شرط ضروري لفعل الإحالة. لكن الكينونة في العالم الواقعي ليست شرطا ضروريا، إذ يمكن للمتكلم أن يحيل على كيانات روائية مثل: ليليان (من شخصيات «قصة حب مجوسية» لعبد الرحمان منيف). كما أنها ليست شرطا كافيا، إذ يجب أن يكون للمتكلم تصور معين عن المحال عليه. والخلاصة أن الكينونة في العالم الواقعي ليست شرطا ضروريا ولا كافيا لتمكن المتكلم من الإحالة. ويبقى العامل الرئيس متعلقا بامتلاك تصور معين عن الكيان المعني.

إن الإحالة، إذن، علاقة قائمة بين التعابير اللغوية وبين تأويلات المتكلمين للعالم الخارجي، حيث يكون التأويل ناتجا عن تفاعل بين الدخل الخارجي والوسائل الصالحة لتمثيله داخليا. وهذا في إطار نظرية تصورية تعتبر، كما رأينا، أن اللغة والتصورات توجدان معا في الذهن / الدماغ وترتبطان داخله، دون أن يكون هناك ترابط مباشر بين التصورات والعالم الخارجي.

ونتساءل الآن: كيف يتم تعيين الموضوعات التي لا تقبل التسمية (العَلَمية)؟ للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى افتراض مستوى ثان من التجريد داخل مجموعة الكيانات في الفضاء التصوري. إن من سمات العالم المحيط بنا كما ندركه، أنه ليس اعتباطيا؛ وتنحو خصائص الأشياء فيه نحو الارتباط ببعضها؛ ويبدو أن أذهاننا مبنية بكيفية تجعلها قادرة على إدراك هذه الترابطات.

وتظهر هذه الترابطات في الفضاء التصوري في صورة مقُولات من الكيانات. ومن أبرز سمات هذه المقُولات أنها، بخلاف الموضوعات المفردة، يمكن أن تبقى قارة حتى في حالة تغير بعض خصائص الموضوعات أو ظهور موضوعات جديدة أو اختفاء أخرى قديمة. ولذلك تُعتمَد المقُولاتُ إحالات للكلمات أكثر مما تعتمد الموضوعات المفردة. وحتى في الحالة التي يكون فيها المتخاطبان على معرفة بنفس الموضوعات داخل مقُولة

معينة، فإن تمثيليهما للمقولة يمكن أن يبقيا متشابهين بما فيه الكفاية ليحصل التوافق؛ إذ يكفي أن يتم التعامل مع نفس النمط من الأشياء وأن يكون هناك اشتراك في الممارسات الاجتماعية – الثقافية.

والأداة الأولى للإحالة على المقولة هي الاسم (اسم الجنس). وعوض أن يحيل الاسم على المقولة كلها، يحيل على موضوع يقوم مقام المقولة؛ وهو الذي يعتبر نمطها النموذجي (prototype). وتفسر هذه الآلية لماذا تملك المركبات الاسمية، من حيث الأساس، نفس الوظيفة النحوية التي تملكها الأسماء الأعلام. وباستعماله الاسم، يشير المتكلم إلى أنه بصدد الحديث عن عنصر من عناصر المقولة (هو النمط النموذجي عادة) يكفي لتمكين السامع من تعيين الموضوع المقصود في السياق.

تكتفي الأسماء بتقسيم الفضاء التصوري على أسس عامة. فاستعمال الأسماء لا يقتضي سوى أن يكون المتخاطبون على معرفة بنفس المقُولات. لكن حتى هذا الاقتضاء يمكنه أن يحد من القدرات التواصلية في بعض السياقات. ومثال ذلك السياق الذي يواجه فيه المتكلم والسامع طبقة من الموضوعات تندرج تحت نفس الاسم، فيحتاج المتكلم إلى تعيين موضوع منها لكنه لا يملك له اسما. في مثل هذه الحالة يصبح المستوى الثالث من التجريد ضروريا.

ومن الاستراتيجيات الأساسية للتمييز بين الموضوعات داخل مقولة معينة محددة على أساس خصائص مترابطة، أن يتم تعيين سمة لا تشترك في التغير مع الخصائص الأخرى للمقولة. وهذه هي الآلية القاعدية لتوليد أبعاد (dimensions) التواصل، أو مجالاته (domains). ومثال ذلك أن لون موضوع معين عادة ما لا يشترك في التغير مع خصائص أخرى. ويمكن التعبير عن المجالات التي تبرزها هذه الآلية عن طريق الصفات في اللغات الطبيعية. فيمكن تعيين لعبة معينة من بين مجموعة من اللعب، مثلا، بقولنا: «لعبة حمراء» (مجال اللون)، أو: «لعبة كبيرة» (مجال الحجم).

ويجد الافتراض القائل إن الصفات أدوات تواصلية أكثر تجريدا من الأعلام وأسماء الأجناس سندا له في المعطيات المتعلقة باكتساب اللغة لدى الأطفال. فتعتبر أسماء المقولات القاعدية (مثل: كلب وكرسي)، من الكلمات الأولى التي يكتسبها الأطفال؛ أما الكلمات التي تحيل على الأبعاد (مثل: أحمر وطويل)، فيبدو أنها لا تفهم إلا في مرحلة متأخرة نسبيا.

إن التفاعلات الاجتماعية يمكن أن تولد الحاجة إلى تمثيلات تمثل فيها البنية البُعدية عن طريق عدد قليل من القيم المتعلقة بكل بعد من الأبعاد. وتظهر الوقائع أن الصفات البُعدية تكون عادة في صورة أزواج متقاطبة، مثل: ثقيل – خفيف، طويل – قصير، الخ. وبهذه الطريقة تولد تأليفات القيم المتعلقة بأبعاد مختلفة شبكة داخل الفضاء التصوري. وعندما نتواصل بخصوص الموضوعات، فإن الشبكة بما يوافقها من تأليفات للصفات، يمكنها أن تولد طبقة من الإحالات القابلة للتواصل بصددها.

هكذا يكون وجود فضاءات تصورية ذات هندسة مشتركة بين المتخاطبين، من الأسس التي تمكنهم من إيصال المعاني إلى بعضهم البعض، ومن السعي إلى التعاون والتناغم والاشتراك في المقاصد؛ وذلك جوهر سؤال التواصل كما نبين فيما يلي.

2. عن القصد المشترك

إن مما يفسر إمكان التواصل رغم الطابع الفردي لبناء التصورات، أن الناس يبدون في حاجة إلى جعل بناءاتهم التصورية تتناغم وبناءات الآخرين، حتى يكون لهم فهم مشترك للعالم. فما دمنا لا نقرأ ما في الأذهان فعلا، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نتناغم هي أن نحكم على سلوكات الآخرين – بما في ذلك أقوالهم – هل لها دلالة أم لا. ومن ثمة الميل إلى التلاقي التصوري في مختلف مجالات التفاعل البشري، بما في ذلك مجال استعمال اللغة.

إن القصد، عادة، بنية معرفية لا تتعلق إلا بعمل شخصي للفرد؛ إذ لا يمكن لفرد معين أن يقصد عمل فرد آخر، إلا إذا كان ذلك بكيفية غير مباشرة: كأن تقصد القيام بشيء معين لتحمل الآخر على القيام بالعمل المقصود. لكن العمل المقصود، في حالة القصد المشترك، يقوم به الشخص والآخرون معا؛ فيلعب العمل المقصود الذي يقوم به الشخص دورا في العمل المشترك. فكل عضو من أعضاء فريق معين، مثلا، يملك قصدا مشتركا لتحقيق أهداف الفريق، فيلعب بذلك القصد الفردي دورا في عمل الفريق المشترك. ومن أبسط الأمثلة على ذلك نقل مكتب من مكان إلى آخر بمساعدة شخص آخر. فحملي المكتب من جهة معينة والتحرك به في الاتجاه المناسب، عمل لا معنى له خارج السياق الذي يقوم فيه الشخص الآخر بحمل المكتب من الجهة الأخرى والسير به في الاتجاه المطلوب. لكن للعملين معا معنى باعتبارهما فعلا قصديا مشتركا لنقل المكتب. ويعمم مفهوم القصد المشترك لينطبق على أي سلوك تعاوني مبني على إرادة حرة لدى المشاركين فيه.

ويعتبر كلارك (1996) أن هذا القصد المشترك من المظاهر القاعدية للتواصل اللغوي أيضا. ويستدل على أن الفعل اللغوي، تبعا لذلك، يتطلب ليس فقط قصدا من جهة المتكلم لنقل المعلومات، بل قصدا مشتركا من جهة المتكلم والسامع معا للقيام بعمل مشترك لتوضيح المعلومات وتحصيلها. يقول كلارك (1996، ص. 3):

«استعمال اللغة شكل من أشكال العمل المشترك حقا. والعمل المشترك عمل تقوم به مجموعة من الأشخاص يعملون بالتنسيق مع بعضهم البعض. لنتخيل، مثلا، شخصين يرقصان الفالز، أو يجدفان في زورق، أو يعزفان لحنا ثنائيا على البيان، أو يمارسان الجنس. [...] إن فِعْل الأشياء باللغة [...] يختلف عن حاصل الجمع بين متكلم يتكلم وسامع يسمع. إنه عمل مشترك ذاك الذي يتكشف عندما يقوم المتكلمون والسامعون [...] بأداء أعمالهم الفردية بشكل منسق داخل مجموعات».

إن الشركاء في الفعل اللغوي لا يكتفون بتصور أذهان بعضهم البعض، بل يسعون إلى نوع من «الالتقاء» بين الأذهان أو «اقتسامها». على أن كل مشارك في مهمة مشتركة لا يحتاج إلى معرفة تفاصيل عمل المشارك الآخر، بل إلى معرفة ما يكفي فقط لضمان حصول التفاعل على الوجه المطلوب. لذلك نلاحظ أن ما يقوم به الشركاء فعلا «لاقتسام الأذهان»، هو أن يحصل كل واحد منهم من الآخر على تأكيد بأن القصد المشترك مقسم بينهم. ومن ثمة يجب أن تكون هناك إشارات لعرض التعاون، ولقبول العرض، وللتنسيق أثناء المهمة المشتركة.

في هذا السياق يولي كلارك (1996) وبانغرتر وكلارك Bangerter (2003) عناية بالغة لما يتم خلال عملية التواصل اللغوي من تعاملات وعبارات وإشارات دقيقة تهدف لدى المشاركين في العملية إلى الحفاظ أثناء التخاطب على القصد المشترك والتحقق من أن الأمور تجري بما يقتضيه هذا القصد. وواضح أن يعتبر هذا حالة خاصة لظاهرة أعم تتعلق بالسلوك التعاوني، وتسمح بمقارنة عملية الحوار أو التخاطب بعمليات تعاونية كالعزف الجماعي في جوقة موسيقية مثلا. إن خلق القصد والحفاظ عليه يعتبران طريقة من طرق تناغم البناءات التصورية على العموم. وهي طريقة تتميز بكونها غير أحادية الجانب؛ إذ تقوم على تعاون المشاركين في خلق التناغم والحفاظ عليه. وهو تعاون يمكنه أن يصاب بالفشل عندما تتعارض وجهتا نظر الشريكين. لكن الذي يهمنا هنا هو هذا السعي التلقائي إلى «التناغم» الذي يبدو أننا مجبولون عليه؛ وأنه من المكونات الأساسية التي نحتاجها لاستكمال بناء موقف تصوري من أسئلة الإحالة كما تناولناها آنفا، ومن ثمة المساهمة في جواب متسق عن سؤال التواصل.

إن مظاهر القصد المشترك ملاحظة كذلك في النشاط التعاوني داخل مجتمعات الثدييات كالذئاب والشامبانزي، وإن كان ذلك بدرجة أقل مما نجده بين البشر الذين يستخدمون بنيات معرفية نوعية. وهناك الكثير من الأبحاث، منها توماسيلو وآخرون (2005)، التي تستدل على أن البشر وحدهم يملكون تصورات متطورة للمقاصد المشتركة التامة التي تعتبر ضرورية للغة والثقافة على حد سواء. فما الأصل المعرفي لقدرتنا على بناء تصور القصد المشترك وعلى التعاون؟ أو بعبارة أخرى: لماذا نحن هكذا؟

الجواب الذي بدأ في التبلور في العقود الأخيرة، أننا نملك بالفطرة قدرات ذهنية معرفية وآليات عصبية، تمكننا من تأويل المقاصد الكامنة خلف الأعمال والسلوكات التي تصدر عن شركائنا في الحياة الاجتماعية اليومية، ومن مشاركتهم حالاتهم الذهنية، ومحاولة توقع ما قد يصدر عنهم لاحقا من سلوكات أو أعمال لم نرها بعد.

1.2. الأساس المعرفي ونظرية الذهن

من أهم قدرات نظرية الذهن الواردة في تبين الأصل المعرفي لتصور القصد المشترك وتصور التعاون، آلية الانتباه المشترك (Shared Attention Mechanism) باعتبارها مكونا جوهريا من مكونات نظرية الذهن. وهي آلية معرفية مسؤولة عن قدرة الإنسان على مشاركة الآخرين في الانتباه إلى نفس الموضوع، ومن ثمة مشاركتهم في حالاتهم.

ويستدل كاربنتر ونيجل وتوماسيلو (1998)، أولا، على أن السبب في ظهور كل سلوكات الانتباه المشترك هذه مجتمعة، هو أنها تمثل – كل بطريقته الخاصة – تجليات للاكتشاف الجديد لدى الرضع المتعلق بفهم الأشخاص الآخرين باعتبارهم منفذين ذوي مقاصد، كالرضع أنفسهم، يمكن تتبع انتباههم إلى الموضوعات والأحداث الخارجية وتوجيهه والإسهام أو الاشتراك فيه. ولا تفهم أنواع الرئيسات الأخرى الآخرين من أبناء جنسها بهذه الكيفية نفسها، ومن ثمة لا تمارس هذه الأنشطة المركبة الخاصة بالانتباه المشترك.

كما يستدلون، ثانيا، على أن السبب في ظهور المهارات اللغوية في أعقاب أنشطة الانتباه المشترك هذه – والترابطِ القوي بين تلك المهارات وهذه الأنشطة – هو أن اللغة نفسَها . في هذه المرحلة، شكل من أشكال نشاط الانتباه المشترك. فالفهم الأول للغة عند الرضيع هو فهمه للألفاظ باعتبارها مؤشرات على قصد الأشخاص الآخرين إلى أن يشترك معهم في الاهتمام بشيء معين. كما أن إنتاجاته اللغوية الأولى تجلياتٌ لقدرته الناشئة على التعبير عن قصده الخاص في أن يشترك الأشخاص الآخرون معه في الاهتمام بشيء معين. وبعبارة أبسط، فاللغة، في هذه المرحلة، متعلقة بالاشتراك في الانتباه وتوجيهه، ومن ثمة ليس من المستغرب أن تظهر جنبا إلى جنب مع غيرها من مهارات الانتباه المشترك.

ويجدر بنا التوقف قليلا، لنلاحظ أن نظريات تطور اللغة لدى الفرد التي تهمل قدرات الانتباه المشترك لا تستطيع أساسا أن تفسر لماذا تظهر اللغة في الوقت الذي تظهر فيه. إن الرضع في المرحلة السابقة للغة، وكذلك الكثير من الأنواع الحيوانية، كائنات قادرة على 1) إدراك الكيانات الخارجية؛ 2) إدراك الأصوات المنفصلة (أو المتمايزة)؛ 3) الربط بين الأصوات والتجارب البصرية. فلماذا لا يمكنها إذن أن تتعلم أي قطعة من اللغة؟ إن السبب هو أن الربط بين الأصوات والتجارب ليس لغة؛ بل هو مجرد ربط بين الأصوات والتجارب؛ بنفس الطريقة التي يربط بها الكلب بين الصوت «كُلْ!» وتجربة الأكل.

أما تعلم قطعة من اللغة فيتطلب من المتعلم (أو السامع) أن يفهم أن الشخص الآخر (أو المتكلم) يُصْدر صوتا معينا بهدف توجيه انتباه السامع إلى شيء يكون ذلك المتكلم موجِّها عنايته إليه أصلا. والنظريات التي لا تُقدِّر الدور الجوهري التأسيسي لهذا النوع من المعرفة الاجتماعية في عملية اكتساب اللغة، لا يمكنها، بكل بساطة، أن تفسر لماذا لا يشرع معظم الأطفال في تعلم اللغة إلا بعد بلوغهم حوالي السنة وليس قبل ذلك.

إن بدايات اكتساب اللغة تبدو بمثابة نشاطِ انتباهٍ مشترك غايته مشاركة الأشخاص الآخرين انتباهَهم وتوجيهُه. والقدرة الاجتماعية – المعرفية التي تمكن من هذا النشاط – أي فهم الشخص للآخرين من بني جنسه باعتبارهم منفذين ذوي مقاصد مثلَ الشخص نفسِه – قدرة خاصة بالكائنات البشرية وتظهر على نحو جلي وموثوق به بين حوالي الشهر التاسع إلى الثاني عشر من تطور الفرد البشري.

وما يجعل المهارات اللغوية مختلفة عن غيرها من مهارات الانتباه المشترك، بطبيعة الحال، أن اللغة التي يتعلمها الطفل تسبق وجوده. وهي تمثل، من ضمن ما تمثله برموزها وتراكيبها، مخزون الجماعة اللغوية من طرق وكيفيات متنوعة لاشتراك أعضائها في انتباه بعضهم البعض وتوجيهه.

وربطا بما بيناه آنفا عن فعل الإحالة ومستوياتها، نتوقف قليلا مع بعض ما يهم علاقة حديثنا هنا عن الانتباه المشترك، بهذا الفعل. وهو في حالتنا هذه فعل متعلق بالإحالة على موضوع مفرد واحد في العالم. ويمكن للمرء أن يتخيل لغة يقتصر فيها فعل الإحالة على استعمال أسماء الأعلام فحسب. أي أننا مثلما نحيل على الكيانات المألوفة لدينا من أناس وأمكنة وأشياء بأسماء أعلام كمحمد وآمنة وجبل طارق والوداد البيضاوي (فريق كرة قدم)، يمكننا أن نحيل أيضا على أي شيء في العالم باسمه العَلَم. ولكن سرعان ما سيؤدي ذلك إلى إرهاق ذاكرة كالذاكرة البشرية. ولهذا السبب، لا يملك الناس عادة إلا بضع مئات أو ربما بضعة آلاف قليلة من أسماء الأعلام لما يعرفونه من أشخاص وأمكنة وأشياء في العالم؛ بينما يستعملون، إضافة إلى ذلك، عدة آلاف من أسماء المقُولات أو أسماء الأجناس. وحتى يمكنهم استعمال أسماء الأجناس هذه، لتوجيه انتباه شخص آخر إلى موضوع مفرد كلما تعلق الأمر بتعيين هذا الموضوع، يجب عليهم إذن أن يستعملوا بعض الوسائل التخصيصية الأخرى، سواء أكانت لغوية (مثل: س الذي في غرفتي)، أم غير لغوية (مثل إشارة الأصبع).

ومن الخصائص المذهلة لأسماء المقُولات (أو الأجناس)، أنها تُستعمَل للإحالة على الموضوعات من وجهات نظر متعددة، تبعا لسياق التواصل ولمقاصد المتكلم على حد سواء. ومن الأمثلة البسيطة، أن أسماء الأجناس تجسِّد تأويلات مختلفة للانتباه قائمة على أبعاد مثل الإفراد والنوعية، نحو: شيء، أثاث، كرسي، أريكة؛ والمنظور، نحو: الساحل، الشاطئ، الضفة؛ والوظيفة، نحو: أب، محام، أستاذ، مغربي (انظر بخصوص هذه الأبعاد لنكيكر (1991) مثلا). ومن ثمة، فمتى ما اشترك المتكلم والسامع في الانتباه إلى شيء مخصوص، أمكنهما الإحالة عليه مستقبلا في نفس السياق بواسطة بعض الرموز الصغيرة المتعددة الأغراض والسهلة الاستعمال كالضمير هو بمختلف أشكاله.

والمسألة الرئيسة أن قرارات تأويل المحال عليه، أو الحمل، بكيفية مخصوصة دون أخرى، تتم على أساس قصد المتكلم بالنظر إلى اهتمام السامع بالموضوع أو النشاط المعنيين وانتباهه إليهما. فالمتكلم يعرف أن السامع، الذي يستعمل نفس اللغة، يشترك معه في نفس المجموعة من الاختيارات التأويلية؛ وتوجد هذه المجموعة من الاختيارات في شكل وجهات نظر (أو منظورات) لا تعد ولا تحصى، مرَمَّزةٍ في رموز وتراكيب (في اللغة المشتركة) معروفة، ويمكن اختيارها في اللحظة والسياق المناسبين. هكذا تعتبر الرموز اللغوية البشرية، في نفس الوقت، مشتركة بين الذوات (إذ المتكلم والسامع معا يعرفان مجموعةَ الإمكانات المتاحة، كما أن كل واحد يعرف أن الآخر يعرفها)، وتعبر عن منظور معين (إذ يجسد أي رمز كيفية واحدة، من بين الكيفيات الكثيرة المتاحة، لإمكان تأويل وضع معين لغرض تواصلي معطى).

هكذا يتطلب اكتساب اللغة، في المقام الأول، العدة الكاملة من القدرات المعرفية الأساسية لدى الرئيسات، والمتعلقة بالإدراك والمقُوَلة والذاكرة والفهم العلاقي وحل المشاكل، الخ. بالإضافة إلى صورة المعرفة الاجتماعية التي يتفرد بها الإنسان – ومنها فهمُ الشخص الأشخاصَ الآخرين باعتبارهم منفذين ذوي مقاصد مثله؛ أي نظرية الذهن المتطورة – والتي لا يمكن في غيابها بتاتا وجود أشكال بشرية للنشاط الثقافي أو الرمزي. ولكن مع استعمال هذه القدرات لاكتساب مجموعة الرموز والتراكيب اللغوية، يشرع الأطفال في التفكير بطرق جديدة كليا.

ويشير فيتش (2010) أيضا، إلى أن هذا «التناغم» (القائم على الانتباه والقصد المشتركين) الذي يسميه «دافعا» أو «حاجة» لدى المرسِل إلى «الاشتراك في الأفكار والأحاسيس»، يشكل آخر المكونات لاستكمال القدرة الذريعية لدى البشر، والقائمة على عمليات الاستنتاج التي يقوم بها السامع في التواصل اللغوي والتي تتعلق بنظرية الذهن أو قراءته. ذلك أنه مهما كانت براعة السامع قارئ الذهن، فإنه لن يقوم سوى بقدر محدود من الاستنتاجات دون أن يكون هناك تعاون من المرسِل (أو المتكلم). فنحن البشر نقدم لشركائنا في قراءة الذهن الكثير من المساعدة، بل نستمتع بتبادل المعاني ونسعى جاهدين إلى القيام بذلك. وهذا المظهر من سلوك الإنسان مركزي في التواصل البشري، لكنه نادر في عالم الحيوان. وأساسه ليس حمل الآخرين على فعل شيء معين، بقدر ما هو سعي إلى حملهم على مشاركتنا أفكارنا. ويؤكد فيتش (2010) أن الدافع الأساس لهذه المشاركة، رغم أنه ليس خاصا بالبشر، كما أشرنا، فإنه يبلغ من قوة التطور لديهم درجة تجعله جديرا بدراسة متأنية باعتباره تكيفا معرفيا محتملا «لأجل» اللغة.

يمكن، إذن، أن نتبين مما أوضحناه بصدد تصور القصد المشترك وارتباطه بآلية الانتباه المشترك (البالغة التطور لدى الإنسان مقارنة بالرئيسات) داخل نظرية الذهن، أنه – مع مكوناته المتجلية في تصور القصد الفردي والعمل الحي الإرادي والمنفذية – يجد أصله في العدة الأحيائية المعرفية التي يولد بها الإنسان ويشترك في جزء رئيس منها مع الرئيسات من الحيوان. وهي العدة التي تمثلها تصورات المعرفة النواة عموما، التي تشمل، إلى جانب نسق تمثيل الموضوعات ونسق تمثيل العدد ونسق تمثيل الأمكنة، نسقين يتعلقان مباشرة بموضوع القصد والعمل المشتركين (والانتباه المشترك) هما نسق تمثيل المنفذين وأعمالهم ونسق تمثيل الشركاء الاجتماعيين الذي يقود إحساسنا بعضوية المجموعة والانتماء إليها و«الالتزام المشترك» بمدونة السلوك فيها والسعي إلى التعاون والتآزر. وليس من قبيل الصدفة أن يتقاطع مفهوم القصد المشترك مع مفهوم المجموعة بوصفها فردا فائقا (Superindividual)؛ فنتحدث بسهولة عن قصد التشريع، أو المحكمة، أو الأمة، رغم أن أيا منها لا يملك ذهنا خاصا به. إنها تُتَصوَّر باعتبارها مقاصد للفرد الفائق تظهر في شكل «مقاصد جماعية» لأعضاء المجموعة.

2.2. الأساس العصبي والخلايا العصبية المرآة

إن في مستوى الجهاز العصبي لدى الإنسان والحيوان على حد سواء، ما يعزز ارتباط القصد الفردي والمشترك وما ينبني على القصد المشترك من ميل إلى التعاون، بالعدة الأحيائية الفطرية. ففي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي اكتشف عالم الفيزيولوجيا العصبية جياكومو ريزولاتي Giacomo Rizzolatti وفريقه في جامعة بارما بإيطاليا، أنساق الخلايا العصبية المرآة، في الباحة البطنية أمام الحركية (ventral premotor area) في أدمغة القردة أوّلا.

وقد اعتُبِر أثر هذا الاكتشاف في علم النفس، مماثلا لأثر اكتشاف الحامض الريبي النووي (DNA) في علم الأحياء؛ أي تقديم نظرية موحّدة على مستوى الجهاز التشريحي.

ففي أواخر الثمانينيات، تعرَّف ريزولاتي وفريقه خلايا عصبية في قشرة الدماغ أمام الحركية عند القرد، تستجيب عندما ينجز هذا الأخير أعمالا معينة، كالقبض على فُولَة سودانية. وأثناء دراسة نوعية استجابات هذه الخلايا، لوحظ أن بعضها يمكن أن يستجيب ليس فقط عندما يقبض القرد على الفولة مثلا، ولكن أيضا عندما يرى المختَبِرَ وهو يقبض عليها. وبكيفية مماثلة، تستجيب خلايا عصبية أخرى سواء حين يضع القرد الفولة في فمه أو حين يرى المختبِرَ يقوم بذلك. وقد أثبتت تفاصيل هذا في البحث الأصلي المنشور سنة 1992. (وانظر التفاصيل في دي بيليكرينو وفاديكا وفوكاسي وكاليزي وريزولاتي (Di Pellegrino, Fadiga, Fogassi, Gallese, and Rizzolatti (1992). وبعد ذلك بأربع سنوات، سميت هذه الخلايا العصبية: خلايا عصبية «مرآة»، في بحث نشر في مجلة Brain، لكون استجابتها للأعمال الملاحَظة «تَعْكِس كالمرآة» الاستجابةَ للأعمال المنجَزة. (وانظر التفاصيل في كاليزي وفاديكا وفوكاسي وريزولاتي (1996)).

واستدلت الكثير من الأبحاث بعد ذلك، على أن مثل هذا النسق العصبي القائم على خوارزم مرآوي يلعب دورا رئيسا في قدرات معرفية أوسع مما كان يُحتمَل في البداية، تهم بنيات تطورية اجتماعية ونفسية وتصورية ولغوية نوعية لدى الإنسان. فقد كانت الوظيفة الأولى التي أسندت إلى نسق الخلايا العصبية إبان اكتشافه، هي فهم العمل. وفي حين يبدو أن التحليل البصري يكفي لتعرف الأعمال غير الحية، فإن فهم العمل الحي يتجاوز مجرد التعرف البصري البسيط. ذلك أن على الشخص الملاحِظ أن يتعرف، ليس فقط أن المنفذ الملاحَظ ينجز عملا، بل أن يتعرف أيضا تمييز هذا العمل من أعمال أخرى مماثلة، ويفهم قصد العمل أو هدفه، ويستعمل هذه المعلومة في إعداد الجواب المناسب. وهذه المرحلة النهائية، مرحلة التخطيط الحركي، من الوظائف الراسخة للقشرة أمام الحركية، لكن الخلايا العصبية المرآة تتدخل أيضا في المراحل السابقة المتعلقة بتعرف العمل وفهم قصد المنفذ أو هدفه.

وهذا يوافق القول بوجود وظيفة «تَوَقُّعِيَّة» للخلايا العصبية المرآة، عوض وظيفة «محاكاتية»؛ أي أن هذه الخلايا حساسة لتمثل هدف العمل الملاحَظ، بدلا من المستوى الأدنى لتمثل خصائصه الحركية. وهو ما يدعو إلى اعتبار هذه الخلايا المتخصصة معنيةً باستنتاج قصدية الأعمال

بدلا من محاكاتها، كما تبين ذلك نتائج دراسات تتعلق بالقرود (انظر أوميلتا وآخرين Umilta 2001؛ وفوكاسي وآخرين Fogassi 2005)، وتتعلق بالبشر (انظر ياكوبوني وآخرين Iacoboni 2005).

فهناك دراسات متأخرة انصبت على الإنسان وتمت بواسطة التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI)، تقدم الدليل على حساسية نسق الخلايا العصبية المرآة للأهداف والمقاصد. ومنها دراسة ياكوبوني وآخرين (2005)، التي اعتمدت عرض شرائط فيديو لأربعة أنماط مختلفة من الأعمال على المشاركين في التجربة. يعرض الأول شخصا يقبض على موضوعات في غياب أي سياق. ويصف الثاني مشاهد تتضمن موضوعات في سياق بدون أي عمل. ويعرض الثالث شخصا يمسك فنجانا مع نيّة الشرب. ويعرض الرابع نفس العمل ولكن في سياق مختلف يدل على قصد التنظيف. وأظهرت النتائج أن منطقتين في الدماغ البشري تشكلان جزءا من نسق الخلايا العصبية المرآة، كانتا أكثر نشاطا عند عرض الشريطين المتضمّنين عملا قصديا، مقارنة بالشريطين اللذين لا يتضمنان ذلك. وهو ما يبين أن نسق الخلايا العصبية المرآة لدى الإنسان، كما هو الحال لدى القرد، حسَّاسٌ للقصد الذي يكمن وراء الأعمال المدرَكة ويُحَفِّزُها.

1.3. آليات التعاون

أهم الآليات التي يتجلى فيها التعاون، أو من أهمها على الأقل، ما يلي:

أ. المبادلة المباشرة (direct reciprocity) (أو الإعادة (repetition)). وتقوم على مبدأ: «سأحك ظهرك وستحك ظهري»؛ و«علي أن أساعدك لأني سأحتاج مساعدتك».

ب. المبادلة غير المباشرة (indirect reciprocity) (أو السمعة (reputation)). وتقوم، بدلا من المبدأ السابق، على المبدأ: «سأحك ظهرك وسيحك ظهري شخص آخر». ومن صيغ هذه الآلية مساعدة الشخص لشخص آخر استنادا لسمعة هذا الأخير، ومن ثمة اكتساب شيء من سمعته. والأفراد الذين لهم سمعة مساعدة الآخرين لن يعدموا من يساعدهم عند حاجتهم إلى ذلك.

ت. الانتقاء الفضائي (spatial selection). وتقوم هذه الآلية على غلبة التعاون بين الأفراد الذين يجمعهم فضاء موحَّد، فيشكلون شبكات أو مجموعات (كالجيران، وسكان الحي، الخ..).

ث. الانتقاء القرابي (kin selection). وهي آلية أساسها صلات القرابة (الأسرة، السلف المشترك، الخ.) التي تغذي التعاون بين أفراد ذوي صلة قرابة وراثية، قائمة على تقاسم المورثات؛ إذ يبدو أن الفرد البشري يتقاسم 50% من الحمض الريبي النووي (DNA) مع إخوته، و51,2% مع أبناء عمومته المباشرين.

ج. انتقاء الجماعة (group selection) أو الانتقاء المتعدد المستويات (multilevel selection). وتقوم هذه الآلية على تسخير العمل التعاوني لمصلحة الجماعة وليس لمساعدة نظير معين.

2.3. التعاون ونظرية الذهن

طالما شكل تطور التعاون بين الأفراد الذين ليست بينهم صلة (كصلة القرابة في آلية الانتقاء القرابي المذكورة آنفا)، لغزا عنيدا في علم الأحياء التطوري. وتظهر النماذج الصورية أن درجة الإيثار المتبادل (reciprocal altruism) تماثل تقريبا درجة الإيثار المؤسَّس على القرابة (altruism kin-based)، عندما يكون بإمكان المتعاونين أن يتوافقوا أو يتناغموا. لماذا، إذن، يعتبر الإيثار المتبادل نادرا؟

يستدل باريت وكوسميدس وتوبي (2010) على أن المفتاح يكمن في صعوبة التوافق القائم على المقاصد الخفية؛ فإذا كان الأفراد قادرين على الكشف، بشكل موثوق به، عن القصد التعاوني لدى الآخرين، فإن التعاون يكون مستقرا. لكن الكشف عن المقاصد يعتبر من الصعوبة بمكان، وخاصة عندما تكون هناك دوافع للتضليل والخداع.

فحاولنا الإجابة من خلال إبراز بعض أساسيات النظرية النفسية للإحالة باعتبارها علاقة قائمة بين التعابير اللغوية وبين تأويلات (أو تمثيلات) المتكلمين الذهنية للعالم الخارجي. وتناولنا بعض أهم مستويات التجريد الإحالية التي تقوم عليها البنيات التصورية، في علاقة ذلك بالمقُولات اللغوية التي ترتبط بصفة نمطية بهذه المستويات. وهي، تباعا، اسم العلم للموضوعات المفردة، واسم الجنس للمقُولات، والصفة للأبعاد أو المجالات. وتمثل هذه المستويات التجريدية، بوظائفها المعرفية، مظهرا من مظاهر التصميم الموحد الذي تشترك فيه البنيات التصورية لدى بني البشر، ويشكل الأرضية اللازمة التي تسمح بإمكان التواصل. وهو إمكان اعتبرنا من عناصره الجوهرية سعي الناس إلى تناغم بنياتهم التصورية حتى يكون لهم فهم مشترك للعالم. «فالأمر ليس مقصورا على أن عالمنا المتَصَوَّر هو واقعنا الخاص بنا، بل نتحقق باستمرار من أنه يوافق عالم الآخرين. وبقدر ما نحس بالتوافق، نعتبر التصوُّرَ المشتركَ صادرًا عن «الخاصية الموضوعية للعالَم»؛ ومن ناحية أخرى، بقدر ما نحس بالتعارض نكُون مجْبَرين على الاعتراف بالذاتية، ويصبح إحساسُنا بما هو «موضوعي» أقلّ استقرارا».

واعتبرنا أن من أبرز الافتراضات التي تمكن من فهم هذه العلاقات التعاونية القائمة على الميل إلى التناغم والتلاقي بين البشر بما في ذلك تواصلهم اللغوي (وغير اللغوي)، افتراضُ القصد المشترك. وهو افتراض مفاده أن بني البشر يملكون، بحكم طبيعتهم الأحيائية، التصورية والعصبية على حد سواء، قدرات معرفية على بناء الأعمال والمقاصد المشتركة وآليات التعاون، ومنها التواصل اللغوي.

تقديم

تقوم نظرية الدلالة التصورية على افتراض قاعدي مفاده أن الدلالة اللغوية جزء من نظرية ذهنية (نفسية) أوسع حول الكيفية التي يفهم بها البشر العالم، وأن موضوعها صورة من صور البنية الذهنية تسمى البنية التصورية وترمز العالم كما يتصوره البشر.

وتتلخص المهمة الأولى للنظرية الدلالية في تخصيص نسق البنية التصورية التأليفي، بأولياته ومبادئ تركيبها، الذي تمثله قواعد تكوين التصورات وسلامتها. فتعتبر البنية التصورية التي ترمز معاني الكلمات والمركبات والجمل، نسقا تأليفيا توليديا صوريا مستقلا عن البنية التركيبية وأغنى منها إلى حد بعيد. وذلك بأولياته المتمثلة في كيانات مثل الأفراد والأحداث والأمكنة والخصائص والمقادير والمحمولات والمتغيرات والأسوار؛ ومبادئه التأليفية القائمة على علاقات مثل الروابط المنطقية، والدالات وموضوعاتها، والأسوار ومتغيراتها، والأقوال واقتضاءاتها، والنعوت ومنعوتاتها. وتتعلق هذه المهمة الأولى داخل النظرية الدلالية بالكيفية التي ينظَّم بها مجال المعنى اللغوي وتبنى ظواهره؛ سواء في مستوى دلالة الوحدات المعجمية، أو في مستوى دلالة المركبات والجمل.

والمهمة الثانية للنظرية الدلالية هي تخصيص القواعد الوِجاهية (interface rules) التي تسقط بنيات النسق التأليفي الدلالي على البنيات اللغوية الخالصة الأخرى التركيبية والصواتية. ومن بين هذه القواعد الوجاهية، نجد الكلمات التي تربط بين أجزاء من البنية التصورية وأجزاء من البنية التركيبية والصواتية؛ كما نجد القواعد الوجاهية التي تتعامل مع بنيات المركبات والجمل. ويعبر عادة عن هذه المهمة بالسؤال عن الكيفية التي تعبر بها اللغة عن التصورات أو «الأفكار».

لكن دور التصورات لا ينحصر في هاتين المهمتين اللتين تتعلقان بما يسمى عادة «دلالة لغوية» وبموقعها داخل المحيط النحوي، بل يشمل خدمة أغراض أخرى يفرضها المحيط الذهني الشامل وبيئته المعرفية العامة بما تتضمنه من أنساق غير لغوية على النظرية الدلالية تخصيص وجاهاتها، وتلك مهمتها الثالثة. والمقصود بالأنساق غير اللغوية أنساق إدراكية، كأنساق البصر والسمع والشم واللمس والذوق واستقبال الحس العميق (proprioception)؛ وأنساق تصورية، كأنساق الاستنتاج (أو التفكير) والمعرفة الاجتماعية ونظرية الذهن ونظرية العمل.

وحتى يمكن لكل هذه الأنساق اللغوية وغير اللغوية أن تتفاعل في ما بينها لتمكين الإنسان من بناء تصور موحد للعالم، تحتاج كل هذه الوجاهات إلى أن تلتقي في بنية ذهنية معرفية مشتركة هي البنية التصورية. وهي المستوى الذهني الذي تتبلور فيه عمليات التفكير والتخطيط، وتتصل التصورات بالإدراك والعمل، ويتم فهم الأقوال اللغوية في سياقاتها الذريعية والموسوعية، باعتبارها البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل.

في هذا الإطار النظري نتناول بعض ما يمكن أن تستفيده اللسانيات عموما ولسانيات الخطاب خصوصا من مكتسبات العلوم المعرفية والتطور الحاصل في دراسة الوِجاهات الإدراكية/ التصورية–اللغوية وهندستها؛ وخاصة في مجال بلورة تصورات أكثر دقة لمفاهيم كمفهوم سياق التواصل. وذلك من خلال محورين رئيسين:

- يتناول المحور الأول بعض سمات الغموض والالتباس التي تسم مفهوم السياق في النظرية اللغوية، وخاصة في لسانيات الخطاب. ويؤكد المكتسب المتمثل في اعتبار السياق بناءا ذهنيا مركبا.

- ويتناول المحور الثاني بعض الإمكانات التي تتيحها التطورات الحاصلة في علاقة النظرية اللسانية عموما، ونظرية الدلالة التصورية (أو التوازي النحوي) على وجه التحديد، بالعلوم المعرفية في تدقيق هذا المفهوم. ومنها هندسة الوِجاهات التي تمكن من تفكيك السياق إلى عناصر ترتبط بالملكات الإدراكية والتصورية المختلفة، وبتفاعلها، وتضافرها في تشكيل عالم الخطاب وإمكاناته التأويلية.

ومن ذلك أيضا ما نجده، مثلا، عند فان دايك (2008) الذي: «يدافع عن أطروحة نظرية يمكن أن تكون بديهية [...] لكنها ليست ظاهرة في الكثير من العلوم الاجتماعية الحالية ومختلف مقاربات الخطاب والتواصل. وهي أطروحة بسيطة جدا، لكنها حاسمة في فهم ما هو السياق وكيف يرتبط بالخطاب:

ليس الوضع الاجتماعي هو الذي يؤثر في الخطاب (أو يتأثر به)، ولكنها الكيفية التي يحدد بها المشاركون [في الخطاب] هذا الوضع.

ليست السياقات، إذن، نوعا من الشرط الموضوعي أو السبب المباشر، ولكنها بناءات ذاتية (أو بناءات عبر الذوات) تُصمَّم وتُجدَّد أثناء تفاعل المشاركين [في الخطاب] باعتبارهم أعضاء مجموعات وجماعات. ولو كانت السياقات شروطا أو قيودا اجتماعية موضوعية، لتكلم كل الناس الذين يوجدون في نفس الوضع الاجتماعي بنفس الكيفية. [...] السياقات بناءات من تشييد المشاركين [في الخطاب]. [...] سنحدد السياقات، باعتبارها تأويلات ذاتية للأوضاع التواصلية، على أنها نماذج سياقية [ذهنية]. [...] [ومن جملة ما يجب] أن تقوم به هذه النماذج السياقية: [...] أن تحدد شروط ملاءمة الخطاب، ومن ثمة أن تكون أساس نظرية للذريعيات».

إن السياق كيان نفسي ذو طابع مركَّب في أذهان الشركاء اللغويين. وإذا كانت الصفة النفسية–الذهنية واضحة على العموم في مستواها الأَوَّلي، بالنظر إلى الكم الهائل من الأدبيات التي تراكمت منذ ما عرف «بالثورة المعرفية» على الخصوص، فإن الطابع المركب للسياق وعناصرَه المكوِّنة، من جهة، والمضمون المعرفي لهذه الصفة النفسية–الذهنية، من جهة ثانية، أقل وضوحا بكثير. فلا نجد في الأدبيات الذريعية والخطابية تدقيقا كافيا لهذه المكونات ومضامينها وآلية اشتغالها داخل هندسة نظرية نحوية واضحة.

2.1. مكونات السياق

إن الحديث عن مكونات السياق يطبعه الغموض والالتباس. ويمكن أن نسوق، من بين الأمثلة التي نجدها في الأدبيات عن أوصاف هذه المكونات التي تفتقد الدقة والتحديد، مثال حديث فتزر Fetzer (2004) عن خصائص السياق، الذي تغلب عليه العموميات والطابع الاستعاري (رغم أنه يوافق عموما، ومن حيث المبدأ المجرد قبل أي تحديد وتدقيق، بعض جوانب التصور الذي نوضحه في الفقرات الموالية). فتعتبر أن الخصائص المعرفية واللغوية والاجتماعية والثقافية لا تشكل مقولات سياقية منفصلة، بل هي أنماط نموذجية (prototypes). ويوصف

السياق عندها، مجازا، باعتباره بَصَلة ذات قشور غير محددة (ولسن وسبربر (1995)؛ أو يوصف باعتباره أطرا (frames) تابعة لبعضها (كوفمان (1974/ 1986) (ونجد هذا أيضا عند فان دايك، منذ (1977) مثلا). وتعتبر أن معنى ذلك، في التواصل اللغوي الطبيعي، أن المعلومات السياقية المخزنة في قشرة، أو إطار، معينين، تتفاعل مع المعلومات المخزنة في القشور أو الأطر المجاورة. ويوافق ترتيب درجة التضمن ترتيب إمكان الوصول إلى المعلومات. وبفضل هذه الطبيعة العلاقية والتفاعلية، يمثل السياق، عند فتزر، بناءا حركيا نشيطا، يمكن وضعه في سياق آخر، ومن ثمة إعادة تحييزه سياقيا، باستمرار، بما يوافق ذلك من قيود سياقية متجددة. لكننا لا نعرف بالوضوح الكافي ما هو مضمون هذه «الخصائص المعرفية واللغوية والاجتماعية والثقافية» «المتعالقة» و«المتفاعلة»، وما هي الأوليات والمبادئ التي تبنى عليها، وما هي وسائل «التعالق» و«التفاعل» في إطار هندسة نحوية معرفية شاملة، كما أشرنا آنفا. وهذا رغم وجود بعض المحاولات في اتجاه تعيين جزء من مكونات السياق وبعض خصائصها، كما هو الحال في بعض أعمال فان دايك. ويصدق هذا على مفهوم «النموذج السياقي» الذي أشرنا إليه عنده آنفا (أي في فان دايك 2008)؛ كما يصدق في أعمال سابقة، حيث يحاول تعيين الأنساق المحددة لسياق الأفعال الكلامية في إطار معرفي، قائلا: «إلى جانب أنساق المعتقدات والحاجات والمتمنيات والتفضيلات والمعايير والقيم، يلعب نسق المعرفة العُرفية [أو نسق المواضعات] دورا مهما. إنه، إذا جاز التعبير، الشرط الأساس والشرط الاجتماعي، على حد سواء، لعمل الأنساق الأخرى في التواصل. وتدرس هذه الأنساق، مثلا، في المجال الحالي للذكاء الاصطناعي، تحت عنوان الأطر. إن من مهام نظرية معرفية للذريعيات، أن تخصص الكيفية التي نستطيع بها إنجاز أفعال لغوية وفهمها، والكيفية التي نستطيعُ بها التصرف وفقا لهذا الفهم في ارتباطه بالأطر المعرفية».

لكن ما يبقى ناقصا، كما قلنا، هو التخصيص الكافي لمختلف الأنساق المكوِّنة بتحديد أَوَّلياتها، وتخصيص الإطار النحوي المعرفي الذي تتفاعل داخله بكيفية معينة وعبر وسائل محدَّدة.

2. السياق أنساقا ذهنية ووِجاهات

إننا نعني باعتبار السياق بناءا ذهنيا مركبا، أنه بنية نفسية معرفية قائمة على مجموعة من الأنساق (أو الملكات أو القوالب) الإدراكية والتصورية، وعلى مجموعة من الأنساق الوجاهية الرابطة بينها. ويندرج هذا الاعتبار في إطار نظرية عامة هي نظرية الدلالة التصورية أو التوازي النحوي المعرفي، التي تقدم تصورا عاما لتعالق الأنساق (اللغوية والإدراكية والتصورية) وتفاعلها عبر الوِجاهات، في بيئة الذهن / الدماغ الشاملة، تبعا لهندسة واضحة أساسها علاقة التوازي بين مختلف الأنساق وتقييد بعضها للبعض الآخر. وقبل توضيح بعض هذه الأنساق ومكوناتها وتفاعلها في الإطار العام المذكور، نحدد، باختصار أولا، مفهوم الوِجاه (interface). فنقسم الوجاهات إلى نمطين أساسيين.

1.2. الوجاهات الداخلية والخارجية

إذا كان من بين مجالات البحث الرئيسة التي تعكس مظاهر العلاقة بين النظرية اللسانية، والتطورات المذكورة في العلوم المعرفية، مجال البحث في العلاقة العضوية بين الدراسة اللغوية الصورية، من جهة، والدراسات اللغوية النفسية والعصبية، من جهة أخرى، ومجال البحث في بنية الملكة اللغوية (الصورية والنفسية والعصبية) بالنظر إلى بنيات باقي ملكات الذهن، فإن منها أيضا مجال البحث في خصائص الوِجاهات الواصلة بين الملكة اللغوية والملكات التصورية والإدراكية الأخرى.

ويمكننا، رغم تعدد تطبيقات مفهوم الوجاه وخاصة في مجال علم الحاسوب (computer science)، أن نحدده، من وجهة نظر عامة، باعتباره نقطة التقاء مشتركة بين مجالات مختلفة، ومن وجهة نظر خاصة، باعتباره أداة صورية يتفاعل بواسطتها نسقان مستقلان أو أكثر. فنفترض، تبعا لهذا التحديد، أن هناك وجاها ذا بنية هي ج، يتفاعل بواسطته نسقان مستقلان هما أ و ب، بناءا على ما يلي:

- هناك اختلافات بِنَويَّة واردة بين أ و ب.
- يشترك أ و ب في النسق ج الذي يمثل تشاكلا مقيَّدا بين بنيات وعمليات جزئية تنتمي إلى أ و ب.

- تتفاعل أ و ب من خلال ج؛ أي أن أ تؤثر نسقيا في ب (وبالعكس) عبر توسط ج.

فالوجاه، إذن، هو الذي يمكننا، مثلا، من استخدام أنساقنا الحسية–الحركية لاستقبال الكلام وإرساله، كما هو الحال في الوجاهين الواصلين بين اللغة والنسقين السمعي والنطقي؛ ومن استخدام اللغة للتعبير عن إدراكاتنا وأفكارنا، كما هو الحال في الوِجاه الواصل بين المعنى اللغوي والنسق البصري (والفضائي)، أو الوجاه الواصل بين المعنى اللغوي ونسق الاستنتاج الذي تقوم عليه عمليات التفكير.

ويمكن تقسيم الوجاهات، عموما، إلى نمطين أساسا: وجاهات «داخلية» لغوية – لغوية، ووجاهات «خارجية» لغوية – إدراكية/ تصورية.

يتعلق النمط الأول بالصلات التفاعلية الداخلية بين مكونات النسق اللغوي أو النموذج النحوي. ويقوم هذا النسق أو النموذج على هندسة نحوية أساسها ثلاثة مكونات رئيسة (لكل منها أولياته ومبادئ تأليفه التوليدية الخاصة به)، مكون صِواتي (فونولوجي) وآخر تركيبي وثالث دلالي/ تصوري. فتفرض هذه المكونات على بعضها قيودا عبر الوِجاهات، ولا يشتق بعضها من بعض كما في هندسات نحوية أخرى. فتكون البنية النحوية للجملة انتظاما ثلاثيا: صواتيا – تركيبيا – تصوريا. وعلى اعتبار أن هذه المكونات (أو القوالب التمثيلية) لا تفهم «لغة» بعضها البعض، فإن التفاعل فيما بينها يتم عن طريق نسق من القوالب الوجاهية (interface modules) التي تضمن التواصل بين مستويات الترميز عبر ترجمة جزئية للمعلومات من صورتها في مستوى معين إلى صورة موافقة في مستوى آخر؛ أي أن القوالب الوجاهية تقيم تشاكلا جزئيا، كما ذكرنا آنفا، بين مستويات المعلومات المختلفة. وبذلك تصبح ملكة اللغة، من هذا المنظور، قائمة على تفاعل عدد من القوالب التمثيلية والقوالب الوجاهية.

أما النمط الثاني من الوجاهات فيتعلق بالصلات التفاعلية بين الملكة اللغوية وباقي الملكات الأخرى. ذلك أن السمات التصورية/ الدلالية التي تخصص في الذهن البشري دلالة الجمل اللغوية والخطابات والنصوص ومختلف الأنساق التمثيلية الدالة الأخرى، تلتقي في مستوى تمثيلي واحد هو مستوى بناء التصورات، أو مستوى البنية التصورية المحدِّد في نظرنا لما يعتبر سياقا، كما سيتضح؛ بناءا على أنه المستوى الذي تتضافر في تكوينه مجمل أنساق الذهن لدى الإنسان. ومن ثمة يمكن تقسيم هذه المجموعة الكبرى من السمات التصورية/ الدلالية إلى مجموعات فرعية توافق مختلف الأنساق الذهنية التي تغذي المعنى في هذا المستوى التمثيلي المشترك.

وهكذا يكون على النظرية، كما ذكرنا في مستهل هذا الفصل، أن تخصص النسق التأليفي التصوري الذي يقوم عليه هذا المستوى، بأولياته ومبادئه التأليفية؛ وأن تخصص القواعد الوِجاهية الداخلية التي تربط بنيات النسق التأليفي التصوري بالبنيات اللغوية الخالصة التركيبية والصواتية، أي قواعد الوجاه الدلالي–التركيبي، والدلالي–الصواتي، والتركيبي–الصواتي. كما يكون على النظرية أيضا أن تخصص الوجاهات الخارجية الرابطة بين مجموعة السمات التصورية التي تنقلها اللغة ومجموعات السمات المستمدة من باقي الأنساق التصورية والإدراكية الواردة الأخرى.

ومن هذه الوجاهات الخارجية ما يلي:

- وجاه الاستنتاج

وهو الوجاه المتصل باستعمال التصورات التي تنقلها اللغة لإنتاج تصورات أخرى؛ وهو ما يسمى بالاستنتاج أو التفكير (المنطقي)، بما في ذلك رسم الخطط الهادفة إلى أعمال.

- وجاه نسق العمل

وهو الوجاه الذي يصل التصورات بنسق العمل القائم على العمليات الكامنة وراء سلوك يقوم به منفذ في وضع محدد. وهذا الوجاه هو الذي يمكننا من إنجاز الأعمال الفيزيائية التي نُخْضِع لها العالم ونمارسها فيه، كما يحصل عندما ننفذ عملا جوابا عن أمر أو طلب محمولين لغويا.

- الوجاهات الإدراكية

وهي التي تصل التصورات التي تنقلها اللغة بالأنساق الإدراكية، لنتمكن من الحديث عما نراه ونسمعه ونذوقه ونشمه ونلمسه ونستقبله بحسنا العميق (proprioception). وفي الفصل الأول من هذا الباب مثال من الوجاه اللغوي–البصري / الفضائي.

- وجاه نسق المعرفة الاجتماعية

وهو الوجاه المتصل بإدماج التصورات التي تنقلها اللغة في نسق المعرفة الاجتماعية–الثقافية المتعلقة بأسس التفاعل الاجتماعي.

- وجاه نظرية الذهن

وهو الوجاه المتصل بإدماج التصورات التي تنقلها اللغة في نسق نظرية الذهن التي تتعلق بإسناد مختلف الحالات الذهنية للمتخاطبين، بما في ذلك مقاصدهم. وهي ملكة وثيقة الصلة بملكة المعرفة الاجتماعية، وتعززها وتتفاعل معها في الكثير من الجوانب، كما يمكننا استنتاج ذلك من خصائص الملكتين. ونجد في الفصل الأول من هذا الباب أمثلة للوجاه الرابط بين اللغة ونظرية الذهن، تتعلق بمجالات الأفعال النفسية والإثباتيات والروابط السببية. كما نجد في الفصل السابق لهذا الفصل تعريفا مجملا لملكة نظرية الذهن ومكوناتها الرئيسة.

ونقدم في ما يلي تحديدا مجملا لنسق المعرفة الاجتماعية ولبعض أبرز مكوناتها. ونمثل للوجاه الواصل بين هذه المعرفة والمعرفة اللغوية بمثالين مختصرين.

2.2. عن وِجاه المعرفة الاجتماعية–الثقافية

المعرفة الاجتماعية–الثقافية ملكة تقوم على عدد من الأنساق والأنساق الفرعية، من أبرزها أنساق ذات طابع إدراكي وحركي (motor) ترتبط بتخصصات دماغية في الإدراك الاجتماعي، وأنساق ذات طابع تصوري تنتمي إلى البنية التصورية. وهي أنساق تتفاعل لتغذي مضمون المعرفة الاجتماعية–الثقافية وتخدم وظيفتها في تحليل ما لا حصر له من ظواهر التفاعل الاجتماعي والثقافي وتنظيمه، وتخصيص مقولة من المقولات الرئيسة في هذه المعرفة هي مقولة الشخص (person) – باعتبارها الشريك اللازم في التفاعل الاجتماعي وسياق التواصل اللغوي – وما يرتبط بها من إدراكات وتفاعلات وتصورات علاقية تشكل أساس الهندسة الكلية للتنظيم الاجتماعي–الثقافي لدى الإنسان.

فبينما العناصر الأساسية في المعرفة الفضائية هي الأشياء الفيزيائية في الفضاء، فإن العناصر الأساسية في المعرفة الاجتماعية هي الأشخاص في التفاعل الاجتماعي. وبينما تتعلق المعرفة الفضائية بأسئلة مثل: ما هو؟ وأين هو؟ تتعلق المعرفة الاجتماعية بأسئلة مثل: من هو؟ وما هي علاقة هذا الشخص بي وبالآخرين؟ فالتصورات الاجتماعية تشكل مجالا منفصلا عن إدراك الأشياء العادي (في الفضاء) وعن مقوَلتها (categorization)؛ إذ ما يجعل من شخص معين عما أو رئيسا أو رفيقا يختلف عما يجعل من شيء معين قطا أو طاولة أو ذهبا. ويبدو أن مثل هذه الاعتبارات ترتبط، كما هو الحال في مثال اللغة، بمبادئ تحتية تمكن الطفل البشري من تعلم المواضعات الثقافية الخاصة التي ينشأ فيها.

وبالنظر، إذن، إلى أهمية تعيين الأشخاص في مجال التفاعل والمعرفة الاجتماعيين، هناك مجموعة من القوالب المتخصصة رُكِّبَتْ على الإدراك العادي لتمكيننا من التمييز الدقيق واستخلاص المعلومات الضرورية الخاصة بهذا المجال. ومن هذه القوالب الواردة في تحليل المعلومات المتصلة بالتفاعل الاجتماعي القوالب الإدراكية والحركية الأربعة: تعرف الوجه، وتعرف الصوت، وتعرف الخصائص التعبيرية الانفعالية في الصوت، وتعرف الخصائص التعبيرية الانفعالية في الوجه.

إن هذه القوالب الإدراكية والحركية الأربعة ترتبط بتخصصات فطرية متمايزة في الدماغ، قد يصاب أحدها دون القوالب الأخرى. وهي قوالب تخدم ملكة المعرفة الاجتماعية، إذ بالنظر إلى ارتباط هذه الملكة بالعلاقات بالأشخاص الآخرين، فهي تحتاج إلى معلومات دقيقة عن هؤلاء الأشخاص المتفاعلين وعن حالتهم الذهنية المحتملة. وهي كيفيات لا يبدو أن هناك علة وظيفية خاصة، خارج هندستنا المعرفية الذاتية، تفسر لماذا على البشر أن يتَّبعوها في تكوين ثقافاتهم دون كيفيات أخرى ممكنة.

كما أن هناك علاقات تصورية أولية أكثر تجريدا تكمن خلف فهمنا للعلاقات والتفاعلات الاجتماعية؛ وهي مظاهر معرفية لا تتعلق بالأنساق الإدراكية والحركية السابقة، وليس لها ارتباط متخصص، مثلا، بمظهر الشخص أو بوضعه الفضائي؛ وإنما هي عناصر تأليفية تتضمنها البنية التصورية وتتصل بخصوصية مجال التنظيم الاجتماعي–الثقافي. ومن أبرز هذه العلاقات التصورية القاعدية: علاقة القرابة (kinship) بما تقتضيه من مفاهيم كالثأر والجزاء، وعلاقة عضوية الجماعة (group membership) وما يرتبط بها من تصورات كالتحالف ومن طقوس منظَّمة لإبراز الانتماء إلى الجماعة أو تمثيلها، وعلاقة السيطرة (dominance) وما تقتضيه من علاقات تراتبية (أو سُلُّمية).

وهناك أنساق تصورية أخرى لا تقل أهمية ترتبط بهذه وتُبْنَى عليها، كنسق القيم. والقيمة خاصية مجردة مبنية تصوريا ومرتبطة بموضوعات وأشخاص وأعمال (مبنية تصوريا كذلك). وهي مجردة لأنها غير مدرَكة بشكل مباشر. وتلعب قيمة كيان معين دورا في قواعد استنتاج مختلفة تؤثر في الطريقة التي يفكر فيها المرء بصدد هذا الكيان. وتختلف الثقافات في أي القيم تُسند بالمواضعة إلى أي نوع من الكيانات وفي أي سياق.

وهناك أنواع مختلفة من القيم واستنتاجات أساسية تُسَوِّغها. ومن أبرز هذه الأنواع:

- القيمة العاطفية، إذ تكون لوضع أو عمل معينين قيمة عاطفية في نظر الفرد س، إذا كانا يبعثان على المتعة أو الألم، أو كان إحساس س بهما جيدا أو سيئا.
- قيمة المنفعة، إذ تكون لوضع أو عمل معينين قيمة نفعية في نظر الفرد س، إذا كانا ينتجان فائدة أو يوقعان خسارة، أي إذا كانا جيدين أو سيئين في نظر س. وغالبا ما تدمج هاتان القيمتان في بعضهما.
- قيمه المورد، إذ تكون لموضوع معين قيمة موردية إذا كان قَيِّما، أي إذا كان امتلاكه أمرا جيدا في نظر الشخص.
- قيمة الجودة، إذ تقاس قيمة جودة موضوع أو عمل بالنظر إلى موضوعات أو أعمال أخرى من نفس النمط، من حيث الوظيفة عادة. ولذلك نتحدث عن حاسوب جيد / ممتاز أو سباق سرعة سيء / رديء.
- قيمة المهارة، إذ تقاس قيمة مهارة الشخص بجودة إنجازه في مهمة معينة، فيكون الشخص جيدا/ ممتازا في القيام بكذا وكذا، أو سيئا/ عاجزا في القيام بكذا وكذا.
- القيمة المعيارية، التي تتعلق بموافقة المعايير الاجتماعية، بما في ذلك المعايير الأخلاقية والدينية والثقافية، كالعادات وأساليب السلوك وآدابه. فتكون لعمل الشخص قيمة معيارية بقدر موافقته للمعايير. فنقول قد أحسن/ أصاب س بفعل كذا وكذا، أو أساء/ أخطأ س بفعل كذا وكذا.
- القيمة المعيارية الشخصية، التي تكون للشخص بقدر موافقته للمعايير الاجتماعية. فنقول عن الشخص الذي له قيمة معيارية شخصية موجبة إنه صالح / فاضل، وعن الشخص الذي له قيمة معيارية شخصية سالبة إنه طالح / شرير.
- قيمة الاحترام، التي تتعلق بالقيمة الاجتماعية الشاملة للشخص، وتمثل خليطا من القيمة المعيارية الشخصية، وقيمة المهارة، والسيطرة، وعوامل أخرى. فنقول عن الشخص الذي له قيمة احترام عالية إنه مرموق أو محترم.

كما أن هناك تصور الملكية باختلاف حقوقها عبر الثقافات، وتصور تمايز الأدوار الاجتماعية، ويشكلان بنيات تصورية كلية عالية التجريد تزودنا بها هندستنا الذهنية المعرفية، لتمكيننا من تنظيم علاقاتنا بالآخرين وتعاملنا معهم وما يجب أن ننتظره منهم. وعلى أساسها نتعلم معرفة الأقرباء والجماعات التي ننتمي إليها، ومن لا ينتمي، ومن هو المسيطر والمسيطر عليه، وفي أي سياق؛ كما نتعلم الكيفيات التي تُرَمَّز بها هذه العلاقات داخل ثقافاتنا الخاصة التي رغم ما يبدو عليه تنوعها من اتساع وغنى، إلا أنه ليس تنوعا اعتباطيا، وإنما هو مجموعة من الاختيارات أو المتغيرات الممكنة التي تسمح بتحقيقها عُدّتنا الأحيائية باعتبارنا بشرا.

ولننظر في مثالين مختصرين يتعلقان بهذا الوجاه المتصل بنسق المعرفة الاجتماعية–الثقافية، ويبينان وروده في تحديد العلاقات التصورية في بنية اللغة والخطاب. وهما مثالان من أمثلة المحمولات الاجتماعية التي من المعلوم أنها ارتبطت ببعض من أهم الإشكالات التركيبية والدلالية في النظرية اللسانية الحديثة.

المثال الأول من أفعال المعاملات، نحو:

باع زيد حصانه بخمسة آلاف درهم

اشترى زيد كتابا بمائة درهم

اكترى زيد حقلا بعشرة آلاف درهم

قايض زيد سيارته بحصان عمرو

يلاحظ أن كل هذه الأفعال تلتقي في نفس البنية الدلالية القاعدية التي تعبر عن انتقال ملكية متبادل يمكن التعبير عنه باختصار كالتالي (حيث تشير س و ص إلى المتعاملين، وتشير ك1 و ك2 إلى الكيانين المنتقلين، وتشير مق إلى: مقابل):

[جعل([س]، [ذهب([ك1]، [من س إلى ص] مق[ذهب([ك2]، [من ص إلى س]

إلا أنها أفعال تختلف من حيث طبيعة العلاقة بين عملي الانتقال ومن حيث وضع الملكية؛ وهو اختلاف متصل بوضوح بقيم تنتمي إلى تصورات نسق المعرفة الاجتماعي. ففي جملة قايض، مثلا، عملان: انتقال ملكية السيارة من زيد إلى عمرو، وانتقال ملكية الحصان من عمرو إلى زيد. لكن طبيعة العلاقة بين العملين التي تجعل منهما مقايضة عوض انتقالين للملكية غير مترابطين، هي أن زيدا وعمرا متفقان على أن للسيارة والحصان قيمتين متكافئتين، وأن تبادل ملكيتهما مربوط بهذا التكافؤ. وبذلك فإن كل أجزاء هذه العلاقة التعاملية، إذا استثنينا الجانب الفيزيائي في نقل الممتلكات، تستلزم تصورات اجتماعية. فمفهوم الاتفاق المبني على الاعتراف المتبادل بوجهة النظر والمصادقة على ذلك، تعامل اجتماعي؛ وكذلك مفهوم قيم الممتلكات التابع للمواضعات الاجتماعية. وعلاوة على هذا، يمكن أن نلاحظ أن بناءا تصوريا أكثر عمقا وتجريدا يكمن وراء هذه المواضعات الثقافية، وهو أن الكيانات والأعمال التي يبدو أنها غير متناسبة أو لا تقاس ببعضها، يمكنها أن تَؤُول هنا إلى سلّم خطي من القيم المتكافئة.

والمثال الثاني يتعلق بالتصورات التي تعبر عنها جمل مثل:

طالب زيد عمرا بالخروج

أمر زيد عمرا بالخروج

فالجملتان تتفقان في التعبير عن بنية دلالية قاعدية مشتركة مجملها أن «زيدا تلفظ بقول موجه إلى عمرو مفاده رغبة زيد في خروج عمرو». لكن الاختلاف الرئيس بين القولين يكمن في أن أمر، في جملة أمر، تقتضي أن يكون زيد في منزلة اجتماعية مستعلية بالنظر إلى عمرو، إذ الأصل في الأمر طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء. وهي منزلة تمكن زيدا من اللجوء، عند الاقتضاء، إلى ممارسة سلطة فرض عقاب على عمرو إذا لم يمتثل للأمر. بينما يوجه الطلب (أو الالتماس)، في جملة طالب، إلى من يكون في نفس المنزلة.

فيظهر أن الأمر بمثابة طلب، ما داما يشتركان في نفس البنية الدلالية القاعدية؛ لكنه طلب رُكّبت عليه سمات تصورية تنتمي إلى مواضعات السيطرة الاجتماعية، التي من مقتضياتها أن الأفراد المسيطِرين يمكنهم أن يعبروا عن طلبات مثلما يمكنهم أن يصدروا أوامر.

3.2. السياق بنية تصورية

تلتقي كل هذه الأنساق، كما ذكرنا، في مستوى تمثيلي واحد هو مستوى البنية التصورية الذي تتضافر في تكوينه مجمل أنساق الذهن لدى الإنسان.

ويمكن أن يستنتج أن البنية التصورية، باعتبارها المستوى الذي يتم فيه تحديد منزلة التصورات والتمثيل لها صوريا، مظهر أساس من مظاهر التمثيلات المعرفية التي يقوم عليها ما يسمى عادة فكرا لدى الإنسان. فهي تُرَمّز تمييز الأنماط (types) من الورودات (tokens)، وترمز المقولات التي نفهم من خلالها العالم، والعلاقات بين مختلف الأفراد والمقولات. إنها إطار ذهني لتخزين التجربة والربط بينها وبين الذاكرة المرحلية وخطط العمل المستقبلي. كما أنها القاعدة الصورية لعمليات التفكير المنطقي والاستكشافي على حد سواء.

إنها، بعبارة أخرى، نسق مركزي من أنساق الذهن. فهي ليست، بالطبع، جزءا من اللغة في حد ذاتها، بل هي البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل. فاللغة في حد ذاتها (أو «الملكة اللغوية الضيقة») تتضمن: أ) البنية التركيبية والصواتية (أي الصورة اللغوية)، ب) والوجاه الذي يعالق بين التركيب والصواتة، ج) والوجاهات التي تربط التركيب والصواتة بالبنية التصورية (أو «الوجاه التصوري– القصدي»)، وبالدخل الإدراكي والخرج الحركي (أو «الوجاه الحسي–الحركي»).

فما يبرر غنى البنية التصورية أنها:

- أولا، مرتكز «الدلالة اللغوية»؛ إذ ما يعتبر «دلالة لغوية» ليس سوى جزء من هذه البنية يخص الوجاه الواصل بين بناء التصورات والصورة اللغوية (الصواتة والتركيب)، الذي تُدْرَس فيه تنظيمات بناء التصورات التي يمكن أن تعبر عنها اللغة أو تستحضرها. وما الدلالة المعجمية، مثلا، سوى دراسة لتنظيمات بناء التصورات التي يمكن أن «تُعَلَّب» أو «تُلَفَّف» في الكلمة الواحدة.

- ثانيا، مرتكز الاستنتاج والارتباط بالإدراك والمعرفة والفعل غير اللغويين. لذلك، يمكننا أن نجد دلائل على بعض أنماط البنيات التصورية لدى ذوات غير لغوية كالرضع والرئيسات العليا (primates)؛ وهي أنماط من التمثيل الذهني تستعمل للتفكير لا للتواصل اللغوي. ويتبين من رصد سلوك بعض الرئيسات المعقد كالقرود في سياقها الاجتماعي، أن لهذه الكائنات فكرا ذا بنية تأليفية غنية. وهي بنية، إن لم تكن في غنى الفكر البشري، فإنها تبقى، مع ذلك، ذات طابع تأليفي. وبذلك تكون البنية التصورية سابقة، ابستمولوجيا، على البنية اللغوية، سواء في ما يتعلق بتطور الفرد أو بتطور النوع على العموم.

هكذا، إذن، تتم كل هذه الترابطات الوجاهية (اللغوية الداخلية والإدراكية–التصورية الخارجية)، في إطار هندسة معرفية لا يوجد فيها مستوى منفصل خاص بمعنى لغوي خالص يتدخل بين الصورة اللغوية والتصورات، بل مستوى واحد هو مستوى البنية التصورية، الذي يُعْتَبَر، بذلك، أساس تحديد هذا الكيان الذهني المركب والشديد التعقيد الذي نسميه سياقا، والذي يُعتمَد، كما تبين ذلك الأبحاث المتعلقة باكتساب اللغة، في صياغة المعنى المقصود من القول، وفي عملية بنائه الداخلي المعجمية والنحوية.

وبذلك يسمح هذا الإطار النظري، إطار نظرية الدلالة التصورية أو التوازي النحوي المعرفي، بدمج فعلي للسانيات في العلوم المعرفية، نظرا إلى التوافق القائم بين الهندسة اللغوية التي يفترضها هذا الإطار وهندسة الذهن / الدماغ العامة التي تتصف بها باقي الأنساق التصورية والإدراكية، إذ تقوم هذه الأخيرة كذلك على أنساق تأليفية متوازية مستقلة تربط بينها مبادئ وجاهية تقيم تشاكلات جزئية.